النكبات

وأثرها في حياة الأمم

تأليف
كمال حدّاد

الناشر: المكتبة العصرية - صيدا وبيروت

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

H125n

النكبات

وأثرها في حياة الأمم

تأليف
كمال حدّاد

الطبعة الاولى

١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م

الناشر

المكتبة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

المطبعة العصرية
للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - ص.ب ٢٠٠

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . »

ـ القرآن الكريم ـ

الاهـــداء

الى اخي وصديقي الدكتور مصطفى خالدي

عربونا لصداقة مستمرة

وتذكاراً متواضعاً لمحبة روحية لا يخبو نورها

مهما دار عليها الزمن وتعاقبت عليها الايام

كمال حداد

استهلال :

(طلائع النور)

لقد مضى الآن على الكارثة الفلسطينية نحو خمس سنوات ، فهل هناك تباشير تدل على ان البلاد العربية استجابت للاستفزاز الصهيوني واخذت ترد على تحديه بصورة عملية ؟

ومن حسن الظن أن يكون الجواب على هذا السؤال بالايجاب . فقد حدث انقلابان مهمان في البلاد العربية المتاخمة لفلسطين ، اي في سورية ومصر . و كذلك حدثت حوادث ذات اهمية في شرق الاردن ، وهذه ان دلت على شيء فانما تدل على حيوية الامة العربية وتيقظها السريع بعد النكبة . اما العراق فيتمخض هو ايضاً عن حوادث جسام وهو مقبل على نهضة كبيرة بسبب ما تظهره الاحزاب السياسية من التنبه والفعالية . اما المملكة العربية السعودية فقد اظهرت بفضل حكمة عاهلها

العظيم ما يدعو للأمل الكبير في مستقبل هذه البلاد التي كانت مصدر الوثبة العربية الاولى ، ثم اخذت البلاد تتقدم بسرعة في جميع الميادين عسكريا وسياسيا واقتصاديا . بل اننا رأينا جلالة الملك عبد العزيز اول من طالب شركة الزيت « الارامكو » بزيادة العائدات العربية الى الخمسين بالمائة من ارباح الشركة ، ثم اجبرها على التنازل عن كثير من الامتيازات وحملها على ادخال السعوديين في مجلس ادارة الشركة ونقل مركزها الى المملكة العربية السعودية . ثم ان جلالته اخذ بكثير من الاصلاحات العظيمة ، فألغى رسوم الحج ، وامر بانشاء سكة حديد الدمام ـ الرياض ثم بتمديدها الى المدينة المنورة فجدة فمكة المكرمة ، عدا عن تعبيد الطرق كطريق جدة ـ المدينة . ولقد تم ايضا انشاء مرفأ الدمام على الخليج الفارسي . وان الذي يزور جدة مثلا يرى الفرق العظيم بين ما كانت عليه منذ سنتين وبين ما هي عليه اليوم ، لقد اصبحت مرفأ مهما ، وتوسعت تجارتها ، وكثرت فيها المشاريع الكهربائية والمائية . ومن العدل والانصاف ان نقول بأن في المملكة العربية السعودية نهضة شاملة هي من غرس العاهل العظيم

وهذا انقلاب شامل قاده جلالته في شتى الفعاليات ثم سار على اثره ابناؤه البررة من الوزراء وكبارُ الموظفين في الدولة . ومن آثاره ان البلاد اخذت تعج بألوف المهندسين والاطباء والفنيين من فلسطينيين وسوريين ولبنانيين .

واذا اجلنا النظر في البلاد العربية الاخرى رأينا ان الوثبة ظاهرة واضحة فيها ، مما يجعلنا نستبشر خيراً بأن البلاد العربية اخذت ترد على التحدي الصهيوني بتقويم سياستها الداخلية والخارجية على اسس جديدة ، تسير بها نحو القوة واسترداد هيبتها التي ضاعت ، وفلسطين التي انتزعت انتزاعا . حقق الله الآمال

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

ان الهدف من هذا الكتاب هو بيان الحوادث التي تطرأ على الامم في التاريخ فتوجه خطواتها وتنقلها من حالة الى حالة : من بؤس وشقاء الى نعيم ورخاء ، ومن ذلة وعبودية الى كرامة وعزة وطنية . وقد اخترت من هذه الحوادث ما يصيب الامم عادة من نكبات وما تقع به من كوارث ، لعلي استفز ابناء قومي واحفزهم على العمل خصوصا بعد ان وقعت الواقعة في فلسطين ، القطر العربي الشهيد ، ولسان حالي يقول : «فإن مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا» (١) او : « حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم كُذِبُوا جاءهم نصرنا ، فنُجّيَ من نَشاء ولا يُرَدُّ بأسنا عن القوم المجرمين (٢) .

(١) سورة الانشراح (٩٤) : ٥ - ٦

(٢) سورة يوسف (١٢) : ١١٠

وقد اخترت الامثلة الكثيرة التي توضح هدفي من الكتاب وصنفت العوامل التي تتحدى الشعوب ، والنكبات التي تستفزها ، فتنهض من كبوتها وتستيقظ من غفوتها . والا فالنكبات تتبعها نكبات والكوارث تليها الكوارث ، فان استفاقت من سباتها العميق فذلك ، والا فقد حكم عليها التاريخ بالاضمحلال والزوال كما حكم ونفذ حكمه على كثير من الامم الغابرة ، فانطوت معالمها واندرست آثارها واصبحت مثلا في الغابرين .

وقد قيل ان الناس ثلاثة : رجل يرى العبرة في غيره فيعتبر ، ورجل لا يرى العبرة الا في نفسه ، ورجل لا يراها في غيره ولا في نفسه . . . واني لا أبرىء نفسي من الخطأ . وقد اردت الخير فارجو ان ينبهني كل منصف الى موضع الخطأ حتى يتيسر لي ملافاته في طبعة ثانية . والله تعالى من وراء القصد .

كمال حداد

لمحة عامة

١ – يسيطر اليوم في الغرب نظامان، أحدهما اقتصادي والثاني سياسي. فالاول هو نظام الاقتصاد الرأسمالي في المرحلة الصناعية Industrialism والثاني النظام الديموقراطي في السياسة وهو عبارة عن نظام تمثيلي نيابي في حكومة ذات سيادة واستقلال، وكيان قومي.

٢ – وليس لدينا ما يؤكد بصورة قاطعة أن نظام الغرب الرأسمالي هو أحسن وأنسب طريقة نعمل تحت لوائها في سبيل تأمين معيشتنا وسد حاجاتنا.

وأما النظام الديموقراطي في السياسة فهو آخر ما وصلت اليه المدنية في الغرب في تطوراتها الحديثة حتى أصبح عقيدة ثابتة يُقاتل من أجلها وتعلن الحروب للدفاع عنها. وقد رأينا تطاحن الديموقراطية مع النازية العنصرية وانتصارها عليها، ثم تطاحنها مع الشيوعية. غير أننا لا نزال بعد في بداية هذا الاصطدام.

الثورة الصناعية

١ – قامت الثورة الصناعية في انكلترة في آخر العصر الثامن

عشر ووافق قيامها فتح المحيط الاطلسي أمام التجارة الانكليزية بصورة جدية وواسعة . ولهذا فان ذلك الاوقيانوس قد لعب في الازمنة الحديثة ما لعبه البحر المتوسط من الادوار في العالم القديم . ولا ريب أنه بعد أن توثق الاتصال بين اوروبة وأميركة قد اصبحت أكثر الشعوب تجارةً تلك التي كانت تتطلع نحو الاطلانطيك وتجاور شواطئه. وقد كان الشعب الانكليزي، من بين تلك الشعوب، في وضع ممتاز بسبب مركزه الجغرافي ومناخ بلاده وتاريخه . وبينما كان الاسبانيون يستغلون نفوذهم وسلطتهم في العالم الجديد لاهداف سياسية، وينفقون ما يجمعونه من واردات مناجم اميركا الجنوبية في سبل لا تمت بشيء للقواعد الاساسية لاتساع التجارة والصناعة ثم كانوا في الوقت نفسه ينهجون سياسة تثبط الصناعة والتجارة، كان المستعمرون الانكليز في اميركة يستوطنون الاقاليم التي ليس فيها مناجم إلا القليل من مناجم الذهب والفضة وكانوا يعيشون في جماعات تحتاج الى أستهلاك المصنوعات الانكليزية، فيستوردونها من الوطن الام ويصدرون اليها ما تنتجه اميركة من المواد الاولية التي تحتاج اليها الصناعة البريطانية .

وقد كانت الحوادث في اوروبة في القرن السابع عشر والثامن عشر من الاسباب الرئيسية التي ساعدت على تقدم الصناعة الانكليزية ، لأن الحروب التي ذر قرنها في القارة الاوروبية اثرت في اوروبة عامة اكثر من انكلترة . ومن جهة اخرى فان الكفاح السياسي والديني في بلاد الانكليز كان قد أعطى للشعب الانكليزي في القرن السابع عشر دستوراً وحكومة اكثر تشجيعاً للنشاط التجاري من الحال القائمة في ذلك الزمن في فرنسة . فمن مميزات الحالة في انكلترة آنذاك عند مقارنتها بحالة فرنسة مثلا ، سيطرة القانون العام وحرية التجارة الداخلية واهتمام الطبقة الارستقراطية بالشؤون التجارية. زد على ذلك قلة الاعتماد على تدخل الدولة في الامور التجارية وهدوء عواصف النعرات الدينية والسياسية ، مما كان سبباً لتشجيع الصناعة إذ أن الجهود تحولت جميعها من هذه الميادين الى ميدان التجارة والاختراع . ثم ساعد ذلك تقدم الرياضيات والاكتشافات التي ظهرت في العلوم الطبيعية Physical sciences. فلهذه الاسباب جميعها اضحت انكلترة الميدان الاول للثورة الصناعية .

كيفية استنباط السنن (١) من التاريخ

يجب علينا حتى نتفهم التاريخ تفهما منطقياً وننتج الانظمة والسنن من خلال الفوضى أن ندرس كل امة بالنسبة لبقية الامم او كجزء من المجموع . ولكن لا يمكن فصل هذا الجزء عن المجموع الذي هو منه والذي يحيط به من كل جوانبه. وكما أنه لا يمكننا في الموسيقى درس الانغام المنفردة إلا ضمن القطعة الشاملة ، فكذلك في التاريخ . فاذا اردنا ان ندرس التاريخ العربي مثلا ، لا يمكننا أن نستغني عن درس المدنيات المجاورة للامة العربية والامبراطوريات المتاخمة لها ، كالامبراطورية الرومانية والفارسية والاقوام التي كانت تتألف منها . وإذا نحن اردنا ان ندرس التاريخ اليوناني ، وجب علينا ان نتخيله كتاريخ للهيئة الاجتماعية في اثينا واسبارطة وكورينثا وطيبة . وما يقال عن اليونان يقال ايضاً عن كل شعب من شعوب

---

(١) للتاريخ سنن وقواعد يتمشى عليها كما للاقتصاد وعلم الاجتماع سنن ايضاً ، وربما لم تبلغ معرفتنا بهذه السنن والقواعد معرفتنا بالعلوم الرياضية والطبيعية ولكن علماء الاجتماع جادوا في استنباط سنن التاريخ والعلوم الاجتماعية كما فعل ابن خلدون في مقدمته الشهيرة .

العالم مما يدل دلالة تامة على ارتباط بعض الامم ببعض ارتباطا وثيقاً في جميع ميادين العمل الانساني . لنأخذ مثلا يوضح لنا طريقة تفسير الحقائق التاريخية على ضوء هذه النظرية التي ذكرناها آنفاً ، وليكن هذا المثل مأخوذاً من التاريخ اليوناني القديم وتاريخ المدن اليونانية الكبيرة التي كانت تؤلف كل واحدة منها دولة قائمة بذاتها في القرون الاربعة الواقعة بين سنة ٧٢٥ وسنة ٣٢٥ قبل الميلاد . فلقد تعرضت تلك الدول اليونانية لضغط تزايد السكان بالنسبة لوسائل المعيشة التي كان اليونانيون الاقدمون يسعون لتأمينها عن طريق الانتاج الزراعي المتنوع . فلما نشأت الازمة ، اي اختلال التوازن بين الانتاج والاستهلاك ، عالجتها كل دولة من تلك الدول بطريقتها الخاصة ، فكورينثا Corinth وكلسيس Chalcis تخلصتا من الفائض من سكانها باحتلال بعض المناطق النائية واستعمارها في صقلية Sicily وتراقيا Thrace وغيرها من الاصقاع حيث لا يوجد تزاحم في السكان ولا قوة لمقاومة الفتح . وكانت هذه المستعمرات اليونانية امتدادات جغرافية للهيئة الاجتماعية اليونانية من غير أن تتعرض هذه الاخيرة لتغيير اساسي في ماهيتها الداخلية ،

لان النظام الزراعي الذي نقله الكورنتيون ، والانظمة الاخرى التي عاشوا تحت ظلالها في هذه المستعمرات لم تكن في حقيقة الامر سوى امتداد صورة قريبة للاحوال والانظمة التي تركها الفاتحون وراءهم في بلادهم الاصلية (وهذا كثير الشبه بالاستعمار الانكليزي من بعض الوجوه في استراليا وكندا ونيوزيلندة) . وأما اسبارطة فقد اتخذت سبيلا آخر وحلا مختلفا لهذه المعضلة ، أي معضلة كثرة السكان بالنسبة لوسائل العيش . لقد أمنت اسبارطة أولا احتياجها للاراضي الجديدة ، ليس عن طريق استعمار الاصقاع النائية التي يقل عدد سكانها ، من طريق مهاجمة جيرانها الاقوياء المتاخمين لها من الدول اليونانية وغزوهم ؛ كما فعلت في مسينا Messina ، مثلا . ولقد كانت نتائج هذا الغزو أن اسبارطة نالت هذه الاضافة الضرورية الى أراضيها بثمن باهظ وحروب متكررة مع الاقوام المجاورة ، تلك الاقوام التي كانت تضارع اسبارطة نفسها بالقوة والجبروت (قارن المانية في العصر الحاضر وحروبها مع فرنسا وروسية الخ). ولكننا نرى أن اسبارطة رغم قهرها لتلك الاقوام ، اضطرت في سبيل المحافظة على ما فتحته من البلدان ، للقيام بجهود عسكرية

جبارة مما اثقل كاهلها ، فأحدثت تغييراً اساسياً في ماهية الهيئة الاجتماعية الاسبارطية أجبرها على قلبها من حياة مدنية عادية الى حياة عسكرية قاسية من أولها الى آخرها (كما فعلت تقريباً النازية الالمانية في العصر الحديث) . ولم يتم هذا العمل إلا بادخال انظمة كانت اسبارطة وغيرها من المدن المماثلة على وشك التخلص منها بصورة باتة . ولننتقل الى اثينا Athens ، فان هذه الدولة حلت المشكلة نفسها بطريقة اخرى ايضاً . فهي اهملت في بادىء الامر قضية الازمة الناجمة عن عدم التوازن بين عدد السكان ووسائل المعيشة اهمالا تاما ، ولم تجرب غزو جيرانها الاقوياء ولا المناطق النائية الضعيفة السكان . حتى اذا استحكمت الازمة وازداد ضغط السكان زيادة كادت أن تخلق ثورة اجتماعية كبرى في قلب اثينا ، قامت تعالج هذه القضية بطرقها الخاصة . وبما أنه لم يعد أمام أثينا مجال للتوسع اذ كان الدول اليونانية الكبرى قد سبقتها وضيقت عليها ما يسمى اليوم بالمجال الحيوي Espace vitale أو Lebensraum فقد التجأت أثينا الى حل مبتكر لمعضلتها وذلك بتحسين انتاجها الزراعي والصناعي وزيادة صادراتها من جهة وتوسيع انظمتها السياسية من جهة

اخرى لاعطاء الطبقات العاملة ، التي كانت قد أخذت في ذلك الحين تتكون وتتزايد على اثر هذه السياسة ، سياسة التوسع في الانتاج ، قسطا أوفر من الحقوق السياسية . وبكلمة اخرى ، ان رجال الدولة الاثينية تمكنوا من اجتناب الثورة الاجتماعية بتحويل عواملها الى حركة سياسية اقتصادية داخلية ، وقد نجحوا في عملهم هذا الى حد بعيد ، وفتحوا عهداً جديداً من التقدم في مضمار الحضارة امام جميع البلاد اليونانية . وهذا ما دعا « بريقلس » الى الاشادة بهذا العهد حينما اعلن اثناء هذه الازمة الخطيرة ان اثينا تدعى بحق مربية الشعوب اليونانية على الاطلاق . وتشبه هذه السياسة سياسة بعض الدول عقب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) اذ عمدت الى فتح الاسواق امام تجارتها وصناعتها عوضا عن سياسة الغزو والاستعمار . والآن لنتساءل عن أسباب غزو البرابرة الاجلاف لليونان ، فنرى أنه إذا كانت دولة متمدنة قائمة الى جوار دولة اخرى أقل حضارة منها ، ثم وقفت الدولة المتمدنة عن التقدم والازدهار ، وطغت عليها عوامل الجمود والترف ، فان التوازن لا يسفر عادة عن نتيجة في صالحها هي بل في صالح الدولة

الناشئة التي اخذت تتقدم تحت عوامل اجتماعية واخلاقية ومثل عليا جديدة تدفعها للأمام. والرومان والفرس لما توقف تقدمهم نحو الشرق واستحوذت عليهم عوامل الجمود والفساد، تعرضوا لدرس قاس كان ثمنه غاليا. وكذلك العرب حينما توقفوا في تخوم المغول والترعلى حدود الصين وأخذت عوامل التفكك والتفرقة تلعب لعبتها في كيانهم، تلقوا تلك الضربات القاسية التي نزلت ببغداد ودمشق على ايدي هولاكو. وفي الاندلس ايضا نرى ان توقفهم عن التوغل في البلاد الشمالية من اوروبة كان نتيجة الانحلال الخلقي والسياسي والاجتماعي، مما ادى لضياع الاندلس من أيديهم واستئصال شأفتهم من اوروبة.

نشوء الدول الكبرى

بينما نرى ان الامبراطورية الرومانية قد نشأت من نواة مركزية واحدة (مدينة رومية) بين مدن اخرى متاخمات لها ثم نمت وترعرعت وسيطرت على جميع جاراتها واحدة بعد اخرى في كفاح داخلي مستمر لبقاء الاصلح، فاننا لم نشاهد هذا التطور

في تكوين الخلافة العباسية ، لأنها تكونت بضربة واحدة عندما استولى العباسيون على الممالك التي كانت الدولة الاموية قد فتحتها في الشرق. فلماذا تضعضع الامويون تحت ضربات العباسيين؟ ولماذا انتقلت عاصمة الملك من دمشق الى بغداد حينما تغيرت الاسرة المالكة؟ ذلك لأن العرب الذين اسسوا الدولة الاموية كانوا يفتحون الولايات الرومانية كسورية ومصر بيدهم اليمنى ويغزون ممتلكات الامبراطورية الفارسية (الدولة الساسانية) بيدهم اليسرى . وبما ان الدولة الساسانية كانت تشمل العراق وايران ، فان ضمها خلق اختلالا ظاهراً في التوازن بالنسبة للبلاد التي افتتحها العرب في الامبراطورية الرومانية. وبكلمة اخرى كان من المعقول ان تسيطر دمشق ، وهي مركز الدولة الاموية على مخلفات الامبراطورية الرومانية القديمة . ولكن لم يكن الامر كذلك بالنسبة للبلاد الساسانية البعيدة في العراق وايران ، مما ادى في النهاية الى انهيار الدولة الاموية. ولقد تمكن العباسيون من ربط البلدين (العراق وايران) سياسيا واجتماعيا برباط قوي ، وجعلوا بغداد عاصمة لهم. وبهذه الطريقة وضعوا عاصمتهم في نقطة

مركزية وسط مملكة تمتد من شمالي افريقية الى آخر حدود الدولة العباسية في المشرق، إذ لم يكن من حسن التنظيم ان تكون دمشق عاصمة لتلك الدولة الكبيرة، وهي بموقعها الطبيعي والتاريخي يمكنها ان تكون مركزاً لمخلفات الامبراطورية الرومانية في الشرق، تلك المخلفات التي لا تتعدى سورية ومصر، كما فعل معاوية عند تأسيس دولته ونجح في ذلك. اما فيما بعد، فلم يكن امام الدولة الاموية الا احد امرين: الاول ان تنحل الى اجزائها التي تتألف منها، واما ان تكون اتحادا وثيقا بين الجزئين الاساسيين من البلدان التي كانت تحكمها الامبراطورية الرومانية والاقطار التي كانت تسيطر عليها الدولة الساسانية. وقدوقع اختيار التاريخ على الحل الثاني. فكان لابد من انقراض البيت المالك الاموي ومجيء البيت العباسي الذي عمل لتوحيد الجزئين الاساسيين وتقريبهما سياسيا واجتماعيا بعدما كان الامويون لا يراعون هذا التوازن، بل يميلون كل الميل للقسم الذي نشأت به دولتهم وترعرعت عصبيتهم، اي في سورية نفسها.

نظرة عامة في العوامل المؤثرة في تكوين الحضارة

او العوامل التي تتحدى الامم

أولا : يظهر من أدوار التاريخ أن المدنية لم تترعرع وتتقدم إلا في الامكنة والبلاد التي تقسو على الانسان من حيث العوامل الطبيعية التي تحيط به . فهذه العوامل الطبيعية حينما تتحدى الانسان تدفعه للعمل فينشط لمناهضتها ويحصل من تفاعل الطبيعة والانسان أو بالاحرى من فعل الطبيعة ورد فعل الانسان ، حالة نهوض وتقدم انساني) وهذا ما نسميه بالمدنية .

والمعروف ان الانسان يميل بطبعه لقانون الحد الادنى من الجهد : Loi du moindre Effort

ومعنى ذلك انه ينتخب الارض الاكثر ملائمة له من حيث المناخ وسهولة العيش . وهكذا اذا لقي مصاعب ومعاكسات في هذه الارض فان همته تستفز ، فينشط للعمل . ويقول الاستاذ قسطنطين زريق في كتابه معنى النكبة — صحيفة ٥٦ : أن

المتتبع لتاريخ الامم وتطور الحضارات ليلاحظ أن نشوءها وتقدمها منوطان بما يكتنفها من صعاب وشدائد ، وليس صحيحا ما يقوله البعض ان الحضارات ظهرت اولا في بلاد خصبة الارض ، سهلة الموارد ، جيدة المناخ ، فاليسر والسهولة لم يكونا يوما من الايام سبيلا الى النمو والتقدم ، وانما نشأت الحضارات ونمت عندما جابهتها في محيطها الطبيعي أو البشري مصاعب ومشاكل دعتها الى جهد الفكر وبذل النفس للتغلب عليها ، فكان في هذا البذل والجهد سبب تقدمها وسبيل خلاصها.

ثم يقول : فالمصائب والشدائد ـ حتى النكبات ـ حافز اذن للافراد والجماعات ، وعلة من علل تنبهها ونهضتها . ولكنها ليست كذلك في جميع الاحوال ، ففي بعضها تكون سببا للتهدم والانهيار ، والتبدد والزوال .

ثانيا للبيئة الطبيعية تاثير ظاهر على تكوين الانسان واتجاهه ، فالبلاد التي تقسو الطبيعة على اهلها هي التي اعطت للعالم اشد الجنود واقواهم ، وامهر المحاربين ، او انشط التجار

والصناع ، بينما البلاد التي يحلو فيها العيش وتهنأ الحياة في ربوعها ، فان سكانها ليس لهم قوة الجلد على العمل المستمر وعلى مقاومة الطبيعة والنشاط الفكري . وكأن الطبيعة لا تجمع بين خصوبة الارض ووفرة منتوجاتها من جهة وبين نشاط السكان وقوة شكيمتهم من جهة أخرى . وانا لا نرى في عصور التاريخ رخاء العيش والرفاهية الا ومعه في اكثر الاحيان الخنوع والاستكانة . حتى اننا لا نعدم امثالا كثيرة تبرهن على هذه النظرية ، لأن الاقوام التي انتقلت من شظف العيش وخشونته الى الرفاهية والبذخ ، اضاعت كثيرا من مؤهلاتها الاولى ، فانهارت قواها في الكفاح المادي والمعنوي ونقص انتاجها فيما بعد وهوت في الفساد ، فاستعبدها الغريب وتحكم بها الاجنبي .

ثالثا اذا اردنا ان نسبك نظرية عامة عن العوامل التي تكون الحضارة يمكننا أن نقول : اذا لم يتعرض الانسان لباعث او مؤثر Challenge. Stimulus يدفعه ويحركه ، كباعث المحيط الطبيعي او باعث بشري آخر ، يستجيب له ويتجاوب

معه Response فانه يتردى الى حالة الخمول التي تخلقها الرفاهية الى ان يستيقظ يوما من الايام تحت عوامل جديدة قاسية وشديدة الوطأة عليه تتحداه وتستفزه للعمل، «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون»(١). صدق الله العظيم.

العوامل التي تتحدى الانسان وتستفزه

العامل الاول: فقر البلاد الطبيعي وتأثير هذا العامل في الحضارة.

١ ـ لقد راينا ان سهولة العيش ورخاء هو الخصم اللدود لتقدم الحضارة، فكلما زاد رخاء المحيط الطبيعي ضعفت الدوافع التي تنبه الانسان وتسوقه للعمل وتنشطه للسعي وراء الرزق.

اما ما يقال عن المدنيات الاولى، وانها نمت وترعرعت على ضفاف النيل في مصر، ودجلة في العراق والنهر الاصفر في

---

(١) البقرة ١٥٥

الصين ، فأنه لا يجرح ولا يدحض هذه النظرية بشيء ، خصوصا اذا علمنا ما كان يفعله طغيان هذه الانهار وطوفانها من التخريب ، وما يحدثه من التدمير عاما بعد عام . واما البيزنطيون الاثينيون فقد كانت بلادهم قليلة الخصب مما دفعهم نحو البحر يعملون ملاحين وتجاراً ليستعيضوا بالتجارة البحرية بين الاصقاع النائية ، عما كانت الطبيعة تبخل به عليهم من جهة الزراعة .

٢ ــ والدول البرية تتاثر عادة تأثراً سيئا اذا اصابها نقص في محصولاتها فتتضرر مواسمها الزراعية ، بينما يكون هذا التأثر اقل منه كثيرا في البلاد المتاخمة للبحر ، ذلك لأن المواسم لا تكون سيئة في العالم كله ، فهي سيئة في منطقة ، وجيدة في منطقة اخرى مما يتيح للمسيطرين على البحر والمتاخمين له ، ان يستوردوا حاجاتهم من البلاد التي تتوفر فيها المنتوجات فينقلونها الى بلادهم بنفقات رخيصة . فالسيادة البحرية عملت في الاثينيين والفينيقيين بالامس ما عملته اليوم في بريطانيا العظمى ، فتعددت علاقات هذه الامم مع العالم الخارجي وامنت ما تحتاجه من مطالب الحياة ، لأن هذه (السيادة) كانت تجعل من اثينة

مثلا ، مستودعا لمحصولات صقلية وايطاليا وقبرص ومصر وليبيا وسواحل البحر الاسود . وبكلمة اخرى انها كانت مستودعات لمنتوجات العالم القديم ، كما ان السيادة البحرية البريطانية في العصر الحديث جعلت من الجزر البريطانية مستودعا كبيراً لمنتوجات القارات الخمس ، ومهما كانت احدى الممالك غنية بمحصول من المحاصيل كالخشب والحديد والنحاس الخ .. فلا مندوحة لها عن الارتباط مع البحر لنقل تلك المنتوجات الى الاسواق المستهلكة . وقد رأينا الدول ذات السيادة البحرية تجمع المواد المختلفة في ثغورها من جميع انحاء المعمورة وتستعملها في بناء سفنها : فهي تستورد الخشب من بلد ما والحديد من آخر ، والنحاس من بلد ثالث ، والقطن من بلد رابع ، ثم لا تسمح بتصدير هذه المواد ، او بتصدير ما زاد عن استهلاكها منها ، ونقلها للبلدان الاخرى ؛ الا اذا نزلت هذه عند رغباتها ، واسدت اليها بعض الخدمات التي هي في حاجة اليها .

وبالاختصار فهي على الرغم من انها لا تنتج مادة من

هذه المواد في ارضها ، فانها تحصل عليها جميعاً عن طريق البحر ثم تصبح مستودعا عالميا لكثير من البلاد المستهلكة .

٣ ـ ومن الامثلة على ذلك ايضا ما نراه في العصور التاريخية القديمة من اندفاع الفلسطينيين في الزمن القديم مع مواشيهم للبحث عن المرعى في داخل البلاد ، بينما يندفع الفينيقيون ـ وهم محصورون في شواطئهم بين جبيل ودلتا النيل ـ في البحر الواسع وينشئون اوطانا جديدة لهم في الشواطىء الغربية من البحر الابيض المتوسط (قرطاجة) ، ومن ثم يخرجون منه الى المحيط الاطلسي بعيدا عن قواعدهم الاساسية ، فتنتشر معهم الحضارة الفينيقية او قل الحضارة الكلدانية التي حملها الفلسطينيون والفينيقيون على السواء . وقد حمل الفلسطينيون بعد ذلك علم هذه الحضارة الى ما وراء المحيط ، بواسطة الدين ، مع العلم ان بلادهم ظلت مدة من الدهر ، نحو الف سنة ، كالصحراء بالنسبة لما يحيط بها من البلاد السورية والمصرية .

٤ ـ ولقد لعبت فلسطين دورا مهما في الحضارة الدينية

العالمية ، مع ان هذه البلاد جبلية صخرية قليلة الماء لا تتفجر فيها العيون ، ولكنها تعتمد في نمو محاصيلها على الامطار الموسمية . اما حياة الفلاح الفلسطيني فهي على جانب عظيم من الكفاح والشدة . ورغم كل الادعاآت القائلة بتأخر الفلاح العربي الفلسطيني فقد اثبت السير سمبسون في تقريره عن الهجرة الصهيونية الى فلسطين بأن الفلاح العربي يستعمل محراثه على احسن ما يستعمله الفلاح في ارقى ممالك العالم ، وانه يخدم ارضه خدمة طيبة ـ ذلك ان التجارب والاختبار دلت على ان محراثه القديم موافق لطبيعة هذه الارض الجبلية ، وهو يعمل عمل مجموعة من الآلات الزراعية . والصهيونيون الذين جاءوا الى فلسطين وتبجحوا بأنهم يستعملون ارقى الوسائل الزراعية الحديثة ، انما يفعلون ذلك بقصد سياسي لا اقتصادي ، اي ان عملهم لا يؤدي الى ربح يذكر ، بل انه في حقيقة الحال مسفر عن خسارة لا بد منها . وليس لهم من وراء عملهم الا الدعاية في الاوساط العالمية .

غير ان الشركات التعاونية والمؤسسات الصهيونية تغطي عجزها وخسائرها من اموال الاعانات التي تجمعها الوكالة اليهودية

من يهود العالم وخصوصا من يهود اميركا . ولقد تقاعس العرب عن مد اخوانهم الفلسطينيين حتى بالنزر اليسير من هذه المساعدات ، مع العلم ان فلسطين العربية كانت بمثابة خط الدفاع الاول عن البلاد العربية جميعها . فلما انهار هذا الخط اخذ اليهود يستعدون لجعل فلسطين نقطة ارتكاز قوية للتغلغل في البلاد المجاورة ، وهم يحشدون لهذا الغرض جميع قواهم المادية والمعنوية لضرب ضربتهم التالية . ومثلهم في ذلك كمثل نهر اقيمت عليه سدود كبيرة لحماية مزروعات الاراضي التي تقع الى جانب تلك السدود وتحميها من الغرق ، فاذا اتفق ان حدث العطب في جوانب السد ، تفاقم الخطر وامتد العطب الى ما يلي السدود . ولا ريب في ان الخسارة على الاراضي في مثل هذه الحال ستكون اضعاف النفقات التي كان بالامكان الاكتفاء بانفاقها على الترميمات الاولى .

٥ ـ فاذا انتقلنا الى لبنان رأينا أن الارض لا تعطي سوى محصولات محدودة ، وانها تتطلب عملا شاقا للمحافظة على قوة انتاجها . فاذا ما قارنا لبنان باراضي منطقة

اللاذقية نرى أن هـذه الاخيرة اكثر خصوبة من لبنان بسبب امتداد سهولها وانخفاض اراضيها وقلة صخورها ، و هذا ما يجعل اللبنانيين اكثر عملا ونشاطا بالنسبة لسكان محافظة اللاذقية . وبالاختصار فان كل شيء محسوب في كتاب الوجود ، حتى خصب الارض ورخاءها او فقرها وقلة عطائها كلها اشياء محسوبة نجد توازنها في نشاط السكان او في خمولهم.

٦ ـ وما حصل في فلسطين ولبنان حصل ايضا في الحجاز بين مكة والمدينة ، فالمكيون الاولون حينما استوطنوا وادي مكة، لم يمكنهم الاعتماد على ثراء الارض وغناء انتاجها لتأمين معيشتهم ، لان الارض ، كما وصفها القرآن الكريم ، ليست بذات زرع ، اي ليست قابلة للزراعة ، بينما نرى يثرب او المدينة المنورة تقع في سهل خصب وسط غوطة خضراء تجري فيها المياه وفيها كل ما يتطلبه رغد العيش وهناءته ؛ ولذلك سميت بيثرب الطيبة . وقد فعل اهالي يثرب ما فعله الفلسطينيون القدماء من الاعتناء ببساتينهم من غير اهتمام بما عدا ذلك من الامور ، ومن غير التفات الى ما وراء حدودهم ، بينما

نرى المكيين اندفعوا تحت تأثير الارض القاحلة فتحدوا الطبيعة وتطلعوا الى ما وراء حدودهم . وكما خاض الفينيقيون غمار البحار فان المكيين عاشوا على قوافلهم التجارية . وانه لذو مغزى كبير ان يولد رسول الله (صلعم) محمد بن عبد الله في مكة ويترعرع فيها فينشأ الاسلام في هذه البيئة القاحلة التي كانت عاملا كبيراً في دفع العرب نحو نهضتهم الكبرى التي حيرت العالم وادهشت ذوي الالباب .

٧ — ومن الامثلة على تأثير هذا العامل الاول الدولة الالمانية . اننا اذ نسافر في البلاد التي كانت لمملكة فريدريك الكبير ، اي ولايات براندنبورغ ، وبمورانيا وبروسية الشرقية ، تأخذنا الدهشة لما نراه من جدب الارض وتحلها كأننا في صحراء التركستان . ومع ذلك فسكان هذه الارض الفقيرة هم الذين لعبوا دوراً عظيما في تاريخ اوروبة الحديثة ، اذ كانت الارض التي يعيش عليها الرجل البروسي صعبة المراس ، مثل صاحبها . وليس من الغريب ان يظهر فيها العسكري الشديد الذي عرفه العالم الحديث خلواً من المرونة

لايفهم من السياسة الا القوة والعنف ، مما تعلمه واستنبطه من الارض التي عاش عليها ، والطبيعة الشرسة التي نشأ في احضانها . ونحن نرى ، الى جانب ذلك وتتميماً له ، ان البروسي قوي الارادة ، دائب على العمل ، وقد حوّل الارض الرملية الى ارض تؤتى أكلها وتنتج انتاجاً طيبا بفضل ما استعمله من الاساليب الزراعية الحديثة وانواع الاسمدة الكيماوية ، وبفضل المواظبة على خدمة الارض خدمة مستمرة بلا كلل او ملل. ولقد رأينا ايضا ان اهل تلك البلاد قدموا للعالم نوعا من الانظمة الاجتماعية الاشتراكية القومية (National Socialism) التي نهضت المانية بفضلها الى اعلى المراتب . وقد كان لهذا النظام حسناته الى جانب السيئات التي ضاق العالم ذرعا بها. ولا يسع المنصف الان يقدر بعض ما جاء في هـذا النظام من ضمان اجتماعي شامل ، وعمل لكل فرد ، وتأمين للصحة العامة ، ورفاهية لجميع الطبقات . ولولا قساوة في الطبع وعنف في الاسلوب وحب للسيطرة وشعور بالتفوق على جميع الامم لكان لهذا النظام مريدون كثيرون يدافعون عنه ويفضلونه على سائر الانظمة

القائمة . لنأخذ الان القطار ولنسافر من ولاية براندنبورغ غربا . لندخل منطقة الرين ، او فلننتقل شرقا الى ليتوانيا . ففي كلا الحالتين نرى ان المنظر تغير وان الطبيعة اخذت تبتسم وتلين في بساتين الرين الضاحكة ، واراضي ليتوانيا الخصبة ومراعيها الطيبة . وسكان الرين وليتوانيا ألين عريكة واقل عملا وسعيا ونشاطاً من سكان بروسيا : فالقاعدة لا تتغير ولن تجد لسنة الله تبديلا (١).

٨ ـ والنمسا ايضا تختلف اختلافا كلياً عن بروسية فجبال الالب تتراءى جميلة في التيرول . والنمسا العليا والسفلى تزهو في وادي الدانوب ، على عكس وصفنا في براندنبورغ وبامورانيا الالمانيتين. فما اجمل تلك البلاد النمساوية التي تتدرج من جبال التيرول واستيريا الى سهول بافاريا واللومبارد ثم الى كرواتيا والمجر ، ومن شواطىء الدانوب النمساوي الى الالب المجري . ولا يسع الرجل الاقتصادي الا ان يعجب من تعدد محصولات تلك المناطق التي يكثر

(١) سورة الاحزاب ٦٢ ، فاطر ٤٣ ، الفتح ٢٣

فيها العنب والقمح والشمندر بالاضافة الى ما تعج به جبالها من معادن .

فاذا اردنا مقارنة البلاد النمساوية بما جاورها من الممالك (المجر ويوغوسلافيا) بدت لنا قليلة الخصب ، ولهذا سيطرت في القرون الاربعة الاخيرة على ما حولها من الممالك وردت عنها الاعداء من الداخل والخارج .

٩ ــ وقد تحدت الطبيعة مدينة لندن وجعلتها تحت تأثير عوامل مثيرة للنشاط بالنسبة لبقية المدن . ولا يخفى ان اكتشاف اميركا كان له تأثير كبير على جغرافية انكلترا الاقتصادية ، اذ انه زاد المرافىء الغربية قوة ونشاطا وعمل على ازدهار هذه المرافىء على حساب الشواطىء الشرقية .

١٠ ــ وهنالك امثلة كثيرة في كل صقع تدل دلالة قاطعة ، لا شبهة فيها ، على تأثير عامل الطبيعة وفعله في تنشيط الهمم أو تثبيطها ، فكلما زاد التحدي من الطبيعة كان الرد نشاطا وعملا واستفزازا من الانسان .

على ان هنالك ملاحظة لا بد منها في هذا الصدد ، ذلك ان زيادة التحدي من الطبيعة للانسان هو تحد معين بالطبع ، لأنه لا

يعقل ان يزيد هذا التحدي الى مالا نهاية له حتى لا يبقى بامكان الانسان ان يعيش في محيطه كما هي الحالة في الصحاري الرملية مثلا او في القطبين الشمالي والجنوبي .

العامل الثاني : عامل الهجرة او الانتقال لبلاد جديدة

١ ــ ان الحضارة التي ازدهرت في الشرق الاقصى ، وعلى الاخص في الجزر اليابانية ، نمت وترعت لأن سكانها انتقلوا من ارض قديمة الى ارض جديدة .

والانتقال من ارض قديمة الى ارض جديدة يبعث على نمو الحضارة خصوصا اذا كان هذا الانتقال اجتيازا لبحر . ولنأخذ مثلا على ذلك تاريخ البحر الابيض المتوسط في الالف سنة الاولى قبل المسيح حينما استعمرت الحوض الغربي لهذا البحر ثلاث مدنيات متفرقة ، انشأت الاولى منها قرطاجة الفينيقية ، والثانية سيراكوزا اليونانية ، وكلا المستعمرتان تركتا وراءهما بمراحل ، البلاد التي نشأتا فيها . فقرطاجة كانت في تجارتها على جانب عظيم من الاهمية ، ولقد تمكنت من ان تقيم على دعائم اقتصادية امبراطورية سياسية لم تكن فينيقية لتحلم بها . واما سيراكوزا التي انشأتها كورنتا فقد فاتت امها في المكانة السياسية وفيما قدمته

للحضارة اليونانية من ثقافة عالية . و كذلك فاقت المستعمرات الآخية (Achaen) التي اسستها الجماعات التي كانت تقطن الشواطئ الشمالية من البليوبونيز (المورة) في جنوبي اليونان منشئيها وعاشت ثلاثة قرون مزدهرة بعد ان تقوضت وانهارت معالم المدنية اليونانية. وهكذا نرى ان كثيرا من سكان اليونان الاصليين لم يلمعوا الا بعد ان نزحوا الى المستعمرات الغربية .

وفي زماننا هذا يمكننا ايضا ان نطبق هذه القاعدة فنرى ان مدينة بوسطن ماساتشوستس . Boston , Mass من اعمال الولايات المتحدة قد فاقت سميتها في لنكولنشير في انكلترا . وكذلك تركت نيويورك ونيواورليان وراءهما بمراحل جميع المدن التي تحمل هذا الاسم في انكلترا وفرنسا .

٢ ــ واذا نظرنا الآن لما يحصل للمهاجرين عبر البحار يتضح لنا اثر عامل الانتقال لبلاد جديدة واضحا جليا . إن هؤلاء المهاجرين يضطرون لأخذ كل ما يمكنهم حمله معهم على ظهر الباخرة من آلات ووسائل تمثل حياتهم الاجتماعية في وطنهم الاصلي ؛ فاذا انتهت رحلتهم ووصلوا الى بر السلامة نزلوا الى الشاطئ وفكوا اما حزموه من امتعتهم . ومن الطبيعي انهم لم يأخذوا

معهم من وطنهم الاصلي الا ما امكنهم حمله على ظهر الباخرة وانهم تركوا وراءهم كثيراً من الاشياء، بل إن الاشياء التي حملوها اخذوها قطعا قطعا وانهم عند وصولها لن يعيدوها لما كانت عليه في الاصل. وهذا معناه ان المهاجر سوف يتحرر من كثير من التقاليد المادية والمعنوية وانه سوف ينسى بعضها ايضا، ثم يتكيف حسب محيطه الجديد. وهذا ما يساعده على الوثوب الى الامام في سبيل التقدم والازدهار.

٣ــ وفي الهجرة البحرية نرى عرى الوحدة البرية التي نسميها « القبيلة » تتفكك وتتبدد، ذلك لأن السفينة تحمل جماعات مختلفة لا تنتمي الى وحدة برية معينة. وهؤلاء المهاجرون سيكونون في وطنهم الجديد مختلفين عما كانوا فيه وسط وحداتهم البرية في وطنهم الاصلي. اما في الهجرة البرية فان الامر على عكس ذلك تماما. لأننا نرى قبيلة برمتها تنتقل الى بلد آخر عن طريق البر فتأخذ معها كل آلاتها وادواتها وماشيتها مما يجعل معيشتها لا تختلف اختلافا كليا عما كانت عليه، على عكس الذين هاجروا بحرا وقد اتوا من اماكن متعددة، وهم مختلفو البيئات فانهم لم يأخذوا معهم من المتاع الا ما اضطروا الى حمله مما جعلهم اقدر على التطور في حياتهم الجديدة واكثر مرونة على التكيف حسب مقتضيات

المحيط الذي يستقبلونه بعد ان تركوا منازلهم وراءهم على مسافات بعيدة .

٤ ــ ولا بد لنا من ملاحظة ما تجلبه حياة السفينة من تعاون بين افرادها المهاجرين ، فإن هذا التعاون منشأه الخوف من البحر المجهول والخطر الكامن في مجاهله ، لذلك يشعرون معا ويعملون معا حتى بعد وصولهم الى شاطىء السلامة ، بسبب استمرار الخوف من داخلية البلاد التي يستوطنوها . وهذا ما يجعل بعضهم يلتف حول بعض فيتساندون وينتخبون من بينهم زعيما يعهدون اليه بقيادتهم العامة تاركين وراءهم تقاليدهم المختلفة وعاداتهم الاصلية. هكذا يستقرون ضمن وحدة جديدة في تلك البلاد النائية ، وحدة تعمل على ضوء مصلحتها وتتكيف حسب هذا المحيط الغريب عنها .

٥ ــ والآن لنتكلم عن هذا العامل الثاني اي عامل الانتقال الى محيط جديد لنرى انه يتحدى الافراد المنتقلين فيشحذ هممهم ويستفزهم على العمل ليرجعوا للبلاد التي طردتهم او اطهدتهم أو التي هاجروا منها بمحض ارادتهم . نقول ليرجعوا اقوياء مرفوعي الرأس موفوري الكرامة . والامثلة على ذلك كثيرة في التاريخ

القديم والحديث . ومن منا لا يعرف هجرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام من مكة الى المدينة ، وما ادت اليه من النتائج العظيمة التي ارغمت قريشاً على الاذعان للاسلام فانضموا اخيراً تحت لوائه ؟ وقد ذكر القرآن الكريم فوائد هذا العامل ، أي عامل الانتقال لبلد آخر أو الهجرة في سورة النساء : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض . قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله ان يعفوَ عنهم ؛ وكان الله عفواً غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مُراغَماً كثيرا وسَعةً . ومن يخرجْ من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله وكان الله غفورا رحيما » . الى ان يقول عز وجل : « ولا تَهِنوا في ابتغاء القوم . ان تكونوا تألمون فأنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما » الآية .

٦ ــ وفي التاريخ المسيحي ايضا امثال كثيرة لهجرة الحواريين والمسيحيين الذين اضطهدهم الرومان ، وكيف تمكنوا

فيما بعد من الانتصار على خصومهم وادخالهم في دينهم .

٧ ـ وفي العصور الحديثة لجأ الملك عبد العزيز آل سعود الى الكويت وبقي فيها سنوات كثيرة حتى اذا حل الوقت الموعود رجع الى الرياض وهاجم ابن الرشيد في قصره واسترد الملك منه .

٨ ـ ولا ننس زعماء روسيا السوفيتية ، وعلى الاخص لينين . فقد بقي لينين لاجئا مدة طويلة في « جنيف » يبث الدعاية ويحيك المؤامرات ضد الحكم القيصري الى ان رجع منتصراً الى روسيا فأقام الحكم البلشفي وضرب القيصرية الضربة القاضية . وقد حدثت في مقاطعة الالزاس واللورين حوادث مشابهة بين سنة ١٨٧٠ و ١٩١٤ .

٩ ـ وفي الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ هاجر كثير من الحكومات وانتقلت الى بلاد حليفة تحت اسم الحكومة اليونانية الحرة والحكومة الفرنسية الحرة والحكومة الهولندية الحرة الخ ... حتى اذا آن الاوان رجعت الى بلادها قوية مكينة .

١٠ ـ وعلى نور هذا العامل ، هاجر القسم الاكبر من اخواننا عرب فلسطين الى البلاد العربية المتاخمة فراراً من اعمال

اليهود الهمجية . ولابد ان يستفزهم ما هم عليه من سوء الحال للرجوع الى اوطانهم فيستردوها بمعونة الانصار من العرب . لذلك نجد من الضرورة بمكان مساعدتهم والاخذ بيدهم ومعاملتهم معاملة الاخ لاخيه ، بل معاونة انصار يثرب للمهاجرين من مكة وتنظيم امورهم حتى لا تنطفىء في قلوبهم جذوة الثأر وحماسة الانتقام . ولا عبرة لما هم عليه من البلاء ، فقد مر على غيرهم في التاريخ كثير من النكبات . والعبرة ان تبقى النفوس سليمة والروح الوطنية قوية حتى تتجاوب مع التحدي وتجد من حوادث الزمان وفرصه ما يعينها على الكر على الاعداء واسترداد الاوطان .

١١ ــ وبالاختصار فان الانتقال من بلد الى بلد ، او بكلمة اخرى « الهجرة » ، من العوامل التي تستفز الفرد والجماعات وتشحذ هممهم وتدفعهم للعمل بنشاط . وطالما رأينا اناسا لم يكونوا ذوي شأن في اوطانهم فاذا هم في المهجر وقد اصبحوا اقواماً آخرين خلعوا عن انفسهم ثياب الكسل وشمروا عن سواعد الجد حتى قلبوا فقرهم غنى ، وبؤسهم نعيما .

اذا حلت كارثة بأمة من الامم ، وكان سببها ناشئا عن تحدي الجوار ، رأينا ان التحدي أو (الاستفزاز) كلما كان قويا كان تاثيره في تنبيه هذه الامة اقوى واعم ، وبكلمة اخرى فان هناك نسبة بين التحدي وبين الرد عليه . والامثلة على ذلك كثيرة :

١ ــ لما اسر تيمورلنك (السلطان) بيلديرم بايزيد العثماني في انقره ، رأينا السلطان محمد الفاتح يتقدم من بعد خمسين سنة فيفتح القسطنطينية ، ثم تمتد امبراطوريته من بلغراد الى طرابزون ، ومن شبه جزيرة القرم الى المورة .

٢ ــ ان معركة « ياتا » Yena التي ربحها نابليون الاول كانت حافزاً قوياً للبروسيين ، فقد انعشت الجيش البروسي والادارة البروسية ، ونهضت بمعارف البلاد نهضة بارزة . وهكذا فان استفزاز « ياتا » اثمر ثمراً طيباً في حركة تحرير المانية جميعها ، هذه الحركة التي بلغت اوجها بدهاء بسمارك وسياسته التي جمعت بين الدبلوماسية والحرب وادت الى وحدة المانية سنة ١٨٧٠ .

٣ ــ وفي سنة ١٨١٢ احرق الروس مدينة موسكو امام غزو نابليون الاول ، وكان تحدي نابليون من العوامل المؤثرة

في رد الفعل الروسي ، وارتداد الجيوش الروسية على الجيوش الافرنسية ، ذلك الارتداد أو الانقضاض الذي كلف نابليون الاول ما كلف هتلر سنة ١٩٤٢ امام ستالينغراد .

٤ ــ ان شدة المقاومة الفرنسية سنة ١٩١٤ ــ ١٩١٨ التي وصلت الى قمتها امام قلاع فردون ، تلك الحصن التي كانت عاملا قوياً في تحطيم الجيوش الالمانية وانتصار الحلفاء في الحرب العالمية الاولى ، نقول ان هذه المقاومة الافرنسية والنتائج التي وصلت اليها لم تكن سوى الرد على تحدي الالمان واستفزازهم لفرنسا عام ١٨٧٠ . ان الجرح العميق الذي اصاب الامة الفرنسية ، واقتطع منها مقاطعتي الالزاس واللورين ، اوجد فيها حيوية ونشاطا ظهرت نتائجها سنة ١٩١٤ ــ ١٩١٨ .

٥ ــ وكذلك فإن من الواضح ان الصدمة الكبرى التي اصابت المانية في الحرب العالمية الاولى كان لها الاثر ذاته في تنشيط المانية وتنبيهها ، حتى عادت سنة ١٩٣٩ اقوى دولة عسكرية في العالم .

٦ ــ وفي التاريخ القديم نرى قورش ، ملك الفرس ، يرسل قوات عظيمة الى بلاد اليونان فتتعرض هذه لخطر عظيم يهدد

كيانها ، ويضعها على مفرق الطرق بين الحرية والاستعباد ، خصوصاً وان اليونانيين كانوا يتألمون من موقف بني قومهم في منطقة الاناضول وهم تحت النير والعبودية الفارسية . ثم انهم جعلوا يشعرون مع اخوانهم الذين كانوا يئنون تحت ذاك النير الغاشم مما جعلهم يفكرون بأنهم اذا أذعنوا امام خصمهم اللدود فهم لامحالة واقعون في الورطة نفسها وتحت الكابوس نفسه . فنشطت أثينا امام الصدمة ودفعت بجحافل قورس ، وانتصرت عليها . وان تأثير هذا العامل ظهر جليا في حالة اليونان بعد هذا التاريخ بنصف قرن ، اذ أحدث يقظة شاملة في مختلف الفنون والفلسفة ، وظهر سقراط وافلاطون وارسطو وبرقليس وغيرهم من الفلاسفة ثم ملتيادس وثمستو كليس واريستيدس وسينون من العسكريين . وان هذه الحيوية التي بدت في اثينا عند غزو قورش لها ، يمكننا بكل سهولة ان نقارنها بحيوية فرنسا في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، لأن اثينا وفرنسة تعرضتا للصدمات الاولى وواجهتا التحدي عند خراب قسم مهم من اراضيهما على اثر احتلال الجيوش المغيرة ، كما حصل لروسيا ايضا سنة ١٩٤١ عند اقتحام الجيوش الالمانية اراضيها .

٧ ــ اما اسبارطة فقد استفرها سنة ٤٦٤ ق.م. نوع آخر من الكوارث ، وهو الزلزال العظيم الذي اصابها وجعلها تنهض من بعده نهضة قوية .

٨ ــ ومما يذكر في هذا الموضوع ان بعض المدن التي اصابتها كوارث عظيمة كالحريق والتدمير والزلزال تقدمت فيما بعد تقدما كبيراً لم تعهد مثله من قبل .

٩ ــ ومن الامثلة على هذا العامل ، تركيا سنة ١٩١٩ فقد انكسرت مع المانية والنمسة وظن الناس انها لن تنهض بعد ذلك من كبوتها. ثم تكاثرت الدول المتكالبة على « الرجل المريض ». ولكن تحدي دول واقوام كاليونان والارمن الذين كانوا فيما سبق من رعايا الاتراك ، ادى بهؤلاء الى ان يستميتوا في سبيل كرامتهم وعزة نفسهم ، فاستطاع الغازي مصطفى كمال ان يطوي صحيفة القهر والخنوع ويفتح عهداً جديداً لتركية فتية تقدمية لا تزال تسير سيراً حثيثاً نحو القوة والمدنية .

١٠ ــ وفي ميدان الدين نرى ان الضربة التي نزلت بالحواريين لفقدهم السيد المسيح عليه السلام كان لها اثر الكارثة على

حركتهم، وفي مدى ثلاثة قرون فقط نراهم بعد الضعف الذي انتابهم يسيطرون على الحكومة الرومانية ويخضعونها اخيراً للكنيسة التي اسسها الحواريون في زمن ضعفهم.

١١ ــ وفي التاريخ الاسلامي نرى ان الكارثة التي انتابت المسلمين في معركة أحد اهابت بهم الى استعداد لا مثيل له يجعل قوة المسلمين اضعافاً مضاعفة ويجدد عزيمتهم للتفوق على اعدائهم.

١٢ ــ وان ننس فلا ننسى معركة ميسلون وما كان من نتائجها النهائية في سورية بعد ربع قرن؛ فقد بعثت في البلاد روح الوطنية والحماسة حتى جعلتها تستفيد من أول فرصة مؤاتية للحصول على الاستقلال المسلوب والحرية المنشودة. وعلى الرغم من كل ما حصل اخيراً من الانقلابات في سورية، فاننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه الحوادث دليل ساطع على حيوية الشعب السوري، وانه لا بد من ان يجد استقراره التام ثم يجد ايضا من بعد ذلك حالة من التقدم السريع التي تعتري جسم كل مريض تخلص من مرض عضال فأكسبه هذا التخلص صحة جيدة وقوة مضاعفة كالجسم الذي يتغلب على مكروب فانه يكتسب مناعة وعافية ضد هذا المكروب.

وان اكثر البلاد التي تئن تحت نير الاستعمار الغاشم لا بد من أن تتحرر هي ايضا . وان ما نراه من الثورات الجامحة في شمال افريقية (تونس والجزائر ومراكش) يدلنا دلالة واضحة انه قد قربت ساعة الخلاص لاخواننا في المغرب . اما تحدي الصهيونية للبلاد العربية وما جرى من انهزام العرب في فلسطين فقد بدأ الرد عليه بصورة واضحة بما ظهر من انقلابات في سورية ومصر ، فهبت البلاد العربية المجاورة لفلسطين تعمل وتكد في سبيل استعادة كرامتها فشملت نهضتها جميع المرافق من عسكرية وادارية واقتصادية .

العامل الرابع : عامل الضغط

١ ـ اذا اشتد الضغط الخارجي على تخوم احدى البلاد بعث في تلك التخوم انتعاشا ، وزادها نشاطا وقوة كما حدث في الصين حينما اشتد ضغط اليابان عليها وتحولت العاصمة من بكين الى نانكين . وكان الضغط في الماضي على بكين نفسها من القبائل البدوية ، ولكن هذا الضغط خفت وطأته من الشمال واشتد من جهة الحدود المتاخمة لليابان والدول الاوروبية مما ادى الى انتعاش منطقتي نانكينغ وشانغاي . وربما تحول هذا الضغط قريبا بعد قيام الدولة الصينية الشيوعية الى منطقة اخرى ، لعلها حدود الهند

الصينية أو حدود الهند ستان والتيبت .

٢ ـ وفي الهند نفسها لعبت بومباي وداخليتها الدور الذي لعبته شانغاى . ذلك لأن الضغط الاوروبي على الهند كان شديد الوطأة من هذه الجهة ، فتحدى هذه المنطقة وشحذ همتها ، فانتخب امهر الساسة واعظم رجال الفكر والصناعة والتجارة .

٣ ـ اما في شمال الهند فان دلهي باتت عاصمة البلاد ، وهذه المقاطعة هي التي قدمت العناصر المحاربة للهند ، وتجلت حيويتها العسكرية بسبب ضغط رجال القبائل الشمالية الغربية الشديدي المراس فأحدثت اعمالهم الاستفزازية جوا بابغا في سكان التخوم الهندية .

٤ ـ والامثلة على هذا العامل كثيرة ، منها تحول العاصمة الروسية من لنينغراد الى موسكو ، والعاصمة التركية من استامبول الى انقره لاسباب ادارية وسياسية في الظاهر ، ولكن في الحقيقة بسبب تحول الضغط على المناطق المتاخمة للعاصمتين الجديدتين .

٥ ـ وقد لعب هذا العامل دوره في الاندلس حينما ضغط العرب في القرن الاول الهجري على السواحل الاسبانية فاستفزوا تلك البلاد مما كان له فيما بعد اكبر الاثر في انعاش التخوم

الافرنسية ، حتى اذا انتهى الضغط العربي في اسبانيـة خمدت الحيوية منها وانتقلت الى سواها .

٦ ـ واذا ما ألقينا نظرة على البلقان رأينا مملكة آل هابسبورغ في وادي الدانوب تقابل الامبراطورية العثمانية ، ثم تنشط الاولى بسبب استفزاز الثانية وتحديها . وما كان هـذا النشاط سوى نتيجة مباشرة لضغط العنصر العثماني الشديد . فلما خف هذا الضغط تراخت قوى الامبراطورية الهابسبورغية العتيدة ونقص نشاطها وتفككت بالنهاية اجزاؤها .

٧ ـ واذا تساءلنا عن اسباب غزو البرابرة الاجلاف لليونان القديمة رأينا انه اذا كان ثمت دولة متمدنة قائمة الى جانب دولة اخرى أقل حضارة منها ، فان الدولة المتمدنة اذا لم تستمر في التقدم والازدهار ، ثم طغت عليها عوامل الجمود والترف ، فان التوازن لايستقر عادة في صالحها بل على العكس من ذلك يتعدل مع الوقت لصالح الدولة الناشئة التي اخذت تتقدم تحت عوامل اجتماعية واخلاقية ومثل عليا جديدة تدفعها الى الامام . والرومان والفرس لما توقف تقدمهم نحو الشرق وتغلغلت فيهما عوامل الجمود والفساد تعرضتا لدرس قاس كان ثمنه غالياً . وكذلك العرب حينما

توقفوا في تخوم المغول والتتر على حدود الصين ، ثم اخذت عوامل التفكك والانصداع تلعب دورها في كيانهم ، تلقوا تلك الضربات القاسية التي نزلت بدمشق وبغداد على يد تيمورلنك وهلاكو . وكذلك في الاندلس ايضا نرى توقف العرب عن التوغل في اوروبة كان نتيجة الانحلال الخلقي والسياسي والاجتماعي مما ادى الى ضياع الاندلس من ايديهم واستئصال شأفتهم من اوروبة ، اثر ازدياد الضغط عليهم من الحدود الشمالية .

العومل الخامس : عامل التعويض والتوازن

١ ـ من المعروف ان الانسان إذا فقد حاسة من الحواس او عضو من الاعضاء ، فانه يجاوب على هذا النقص بزيادة استعمال حاسة اخرى او عضو آخر عن طريق التخصص ، فيتفوق هذا العضو على اقرانه في هذا المضمار . فالاعمى يعوض عن النظر باللمس او السمع ، واحيانا بالذاكرة . وقد رأينا كثيراً من اصحاب العاهات يستفزهم نقصهم (تحت تأثير مركب النقص) الى البراعة في نواح اخرى من الفعالية . وقد قيل « كل ذي عاهة جبار » لكثرة ما يبذله صاحب العاهة من الجهود ولمضاعفة العزم لتلافي ما ألَمَّ به من نقص يحمله الى مراحل ابعد من

المرحلة التي كاد ان يقف عندها لولا ما تحدثه العاهة فيه من شحذ للهمة واستفزاز للقوى الكامنة ، مما هو في ذاته ثورة معنوية وعقلية في نفس صاحب العاهة .

ونرى قياسا على ذلك (في الهيئة الاجتماعية) ان الجماعات التي يصيبها شيء من النقص او التجريد من بعض المزايا ، لخطأ في اعمالها وتصرفاتها او لضغط عليها من جماعات اقوى منها تجبرها على الانزواء والانطواء والتخلي عن بعض انواع الفعالية ، اقول ان هذه الجماعات تعوض على نفسها في هذا النقص بالتفوق في نواح اخرى من الاعمال . والاقليات التي تعرضت في التاريخ لظلم الاكثريات مثل على ذلك .

٢ ــ ومن المشاهد ان الفقر في المدارس العامة يلعب دوراً مهما في نجاح الطلاب ، لأن الطلاب الاغنياء هم اقل اندفاعا في دروسهم من الفقراء الذين يضاعفون جهودهم عادة للتفوق على اقرانهم من الطبقات الغنية . ولهذا فان توازن الفقر يتطلب التعويض على صاحبه باستفزاز مجهوده في سبيل الحصول على احسن النتائج التي لا يصل اليها الغني الوسط الا عن طريق

استفزازات نفسية قوية كالطمع الشخصي او الذكاء الفطرى .

٣ ـ والعائلات في الطبقات الاجتماعية تتدرج عادة ، في الجيل الواحد ، من ادنى الدرجات ثم تدفعها عوامل التحدي المتنوعة ، حتى اذا وصلت اوجها بعد الجيل الرابع اخذت قوتها ، وقد وهنت عزيمة الاستفزاز والتحدي فيها ، تنطفىء رويداً رويداً قافلة الى النقطة التي ابتدأت منها .

٤ ـ ومن الامثلة على عامل التعويض والتوازن ، ما نراه في المهاجرين الذين يهاجرون من وطنهم الاصلي الى بلاد جديدة لا يعرفون لغتها وعاداتها ، ولا يلاقون ترحيبا من اهلها المقيمين ، ثم تستفزهم تلك الحالة فيتفوقون على من حولهم .

٥ ـ ونرى في الاعصر القديمة ان العبيد عند اليونان والرومان كانوا يبتاعون حريتهم ثم ينقضون على اسيادهم تحت تأثير عامل الضغط والتوازن والتعويض .

٦ ـ وكما ذكرنا آنفا فان بعض البيئات الاجتماعية او بعض الدول تفرض نطاقا ضيقا على الاقليات التي ترد عليها من الخارج وتجبرها على مزاولة بعض الاعمال فقط دون غيرها ، كالتجارة

والمهن دون الاعمال السياسية والعسكرية والمهن الحرة ، فتتخصص هذه الاقليات حينئذ في عملها حتى تصل بها اعلى ذروة من النفوذ والثروة .

والسبب في كل ذلك الاضطهاد العنصري او الديني . والامثلة على ذلك كثيرة : منها ان الصيني في مرافيء الباسفيك في كاليفورنيا استولى على مهنة السمسرة وغسل الثياب والبيع في المخازن الصغيرة .

اما اليهود فقد تخصصوا في المسائل المالية بسبب حرمانهم من الاشتغال بالاعمال الزراعية والمهن الحرة والشؤون السياسية والعسكرية ، فانحصر نشاطهم في التجارة والاقتصاد والمالية وتخصصوا بهذه الاعمال وتوصلوا عن طريقها للعب بمقدرات الدول الكبرى ووضعها تحت سيطرتهم السياسية . وعلى الرغم من قلة عدد اليهود في بعض البلدان الاوروبية مثل المانية حيث لم يزيدوا عن نصف المليون اي اقل من واحد بالمائة ، فقد كانوا يملكون نصف الثروة العقارية ويسيطرون ، على الجامعات كأساتذة ، وعلى المصارف والمهن الحرة كأطباء ومحامين الخ ،

بنسبة ٥٠ بالمائة او خمسين ضعف عددهم النسبي ، الى ان ظهرت النازية و كان ما كان بينها وبين اليهود من النزاع بين سنة ١٩٣٣ الى انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ . ولقد خرجت المانية النازية مقهورة القوى وعاد اليهود لسابق نفوذهم بعد ضربات وويلات عظيمة ذاقوا مرارتها في المانية والبلاد التي احتلتها في القارة الاوروبية ثم رفعوا لواء الصهيونية في فلسطين وتحدوا الامة العربية في معركة عرفنا اولها ولا يعرف الا الله آخرها ونتائجها . وقد رأيناهم اخيراً يرغمون المانية الغربية على دفع غرامات لدولة اسرائيل رغم جهود الدول العربية منفردة ومجتمعة لابطال الاتفاق بين المانية واسرائيل .

وفي عهد الدولة العثمانية كانت الامور السياسية والعسكرية والمراكز العالية احتكاراً للعثمانيين ، فتخصص اليونانيون « الفناريون » بالبقالة والبناء والسمسرة والبستنة والتجارة الى غير ذلك . و كذلك العنصر الارمني فأنه تفوق في المسائل ذاتها تقريباً . و كان الاتراك في قازان من اعمال روسيا يعاملون كاليهود في اوروبة و كالارمن واليونان في الدولة العثمانية ،

لذلك رأيناهم يحصرون نشاطهم في التجارة والصناعة فيتفوقون في هذا المضمار. وفي الهند نرى البارسيين وقد لعبوا فيها نفس الادوار التي لعبها اليهود في العالم العربي. وكذلك الاسماعلية (جماعة آغا خان) امتد نفوذهم من الهند الى افريقية الشرقية. وقد سبق في التاريخ ان لعب النسطوريون في العراق وايران أدواراً هامة في الطب وعلم الطبيعة، وتاريخُ الامويين والعباسيين مشحون بأخبارهم.

العامل السادس : الاستعمار والوجعية

١ ــ ان الاستعمار هو في الحقيقة عامل الضغط بذاته ممزوجاً بعامل الكوارث. ولكن بسبب اهميته افردنا له هذا البحث الخاص.

الاستعمار هو سيطرة الاجنبي على بلاد ما والتغلب عليها بالقوة لمصلحته الخاصة، ويتخذ من اهلها عبيدا لمصلحته: يستخدمهم في الحرب لقتال اعدائه، وفي السلم يستعملهم ايضا في جميع مرافق الحياة. وهو يتحكم في مستعمرته كما يريد. ثم هو لا يترك لاهل البلاد الاصليين الا النزر القليل من الحقوق. فالمرافق

العامة والجارك والمصالح العامة يديرها المستعمر كيفما شاء ويحصد ثمراتها ويملأ الوظائف الاساسية من رعيته ، تاركا اصحاب البلاد في الخدمات الثانوية ، وبمرتبات ضئيلة .

وكان الاستعمار سابقا استعبادا تاما ، ولكنه تطور مع الزمن قليلا حتى ادى الى تحسين كبير في المعاملة . ولا بد ان ينتهي الامر الى تحرير المستعمرات تحريراً تاماً .

٢ ـ وفي العصر الحديث تحدى العلم والقانون الدولي الاستعمار فأفقده شيئاً كثيراً من قوته . ولكن الذي انزل بالاستعمار الضربات القاسية هو التزاحم العظيم بين الدول الكبرى او بالاحرى بين المعسكر الديموقراطي الغربي الرأسمالي وبين المعسكر الشيوعي . ويمكننا ان نقول ان استقلال الصين واندونسية والهند والباكستان والفيتنام والهند الصينية ، وان تحرر ايران النسبي من استغلال شركة النفط البريطانية وزيادة عائدات النفط للبلاد العربية ، كل ذلك حصل بسبب بروز الشيوعية كقوة مناوئة للاستعمار الغربي . وبكلمة اخرى نرى ان قرب المستعمرة من تخوم الدولة الشيوعية المركزية هو الذي يضغط

على المستعمرين ويضطرهم، تارة بالقوة وطورا بسبب المصلحة السياسية الى ان يتخلوا عن مستعمراتهم. ولقد وفرت بريطانيا على نفسها عناء منازلة الشيوعية ومنازلة سكان المستعمرات وادركت ان الخطر آت لا ريب فيه فتنبأت بوقوع الكارثة عاجلا او آجلا وانسحبت من مستعمراتها الكبرى (الهند والباكستان) في الوقت المناسب[1]. ولما ادركت اميركة الخطر نفسه ضغطت على هولندة للتخلي عن اندونيسية ثم، تراجعت هي نفسها عن سياسة الاحتلال في الجزر اليابانية. والظاهر أن فرنسة لاتزال اصعب مراسا فلا تقتنع الا بعد ان تخسر عشرات الالوف من ابنائها ومئات المليارات من اموالها في حرب استعمارية طاحنة في الهند الصينية ثم في تونس والجزائر ومراكش، وينتهي بها الامر الى ان تتنازل عن امتيازاتها في تلك البلاد. ولو انها ادركت الامور منذ البدء لوفرت على نفسها كثيرا من التضحيات في الاموال والانفس.

٣ ـ اما الرجعية فهي استعباد طبقة من الزعماء الاقطاعيين لمواطنيهم من الفلاحين والمزارعين والعمال. والرجعية اخذت

(١) ولا بد لها من تعديل سياستها في الشرق الاوسط كله وفي افريقية والانسحاب من القنال لمصلحة مصر وتعديل المعاهدة العراقية لمصلحة العراق.

حصونها تندك تحت تأثير الافكار الحديثة والنهضات الاجتماعية. وما الانقلاب في مصر وسورية الا ضربة قاسية للرجعية التي اخذ ظلها يتقلص تحت تأثير قوانين توزيع الاراضي وتحديد الملكية الزراعية والنهوض بالفلاح والعامل نهوضاً بارزا. اما في لبنان فقد كانت الانتخابات الاخيرة سنة ١٩٥٣ اولى الضربات التي نزلت بالرجعية في الجنوب والشمال، ولم يبق للزعامات الرجعية ما كانت تتمتع به من النفوذ وتمركز السيطرة على المناطق الواسعة، بل جاءت هذه الانتخابات لتحد من نفوذها وتوزعه بين طبقات مختلفة من النواب الذين جعلوا يتسابقون على استرضاء الفلاح والاندفاع في سبيل خدمته ولو على نطاق محدود.

نظرة عامة في مجمل العوامل

إذا زدنا التحدي زيادة لا حد لها، فهل نحصل على استفزاز لا حد له بنفس النسبة كرد طبيعي على هذا التحدي، أم ان هناك حدوداً لهذا الرد يقف عندها، أو انه يتناقص ويضعف إذا زاد التحدي على درجة معينة؟

لا شك أن هناك حدوداً للرد على التحدي، إذ ليس بالامكان

ان يستمر تعاظم الرد الى مالا نهاية له في هذا الطريق .

ولنسرد الآن بعض الامثلة التي تتداخل فيها كثير من العوامل وتشترك في احداث التأثير :

١ ــ لقد تحدى البحر مدينة البندقية وتحدى هولندا ، كما أن الجبال تحدت سويسرا فاستفزت هذه العوامل الجغرافية سكان هذه البلاد حتى اصبحوا في مقدمة الامم انتاجاً وحضارة. ولا يمكن للانسان ان يتخيل تحدياً أشد من تحدي البحر لهولندا ومن تحدي جبال الالب الشاهقة لسويسرا . ولكن إذا تعمقنا في الموضوع وجدنا ان البحر والجبال لعبت دوراً مزدوجاً . فالجبال في سويسرا حثت السكان على طلب رزقهم بواسطة صناعة الالبان وصنع الساعات واتقان الصناعات الدقيقة كالتطريز وغيرها مما لم يتيسر لهم عن طريق الزراعة العادية ، ثم ساعدتهم على طرد اعدائهم النمساويين الى خارج البلاد .

٢ ــ ولقد تحدت البيئة الجغرافية بلاد اليونان ، لان وعورة الجبال وقلة المياه كانتا من اسباب استفزاز الهمة والدفاع عن البلاد ضد اعدائها .

٣ ــ ولا ننس جبال لبنان وصعوبتها بالنسبة لجبال اللاذقية، فإن هذه الاخيرة اخصب من الاولى لزراعة الحبوب والدخان والعنب والزيتون، ومع ذلك فهي اقل سكانا من المنطقة اللبنانية واهلها اقل تقدما ونشاطا.

٤ ــ وبالاجمال فان البيئة المعروفة بوعورتها وصعوبة مسالكها تعوض عن هذا العجز بشيء آخر، كأن تكون اكثر قابلية للدفاع فيحمي اهلها من الوقوع تحت السيطرة من العدو المهاجم. وهذا تحد جغرافي نرى الجواب عليه باستفزاز بشري.

٥ ــ وقد رأينا ايضا كيف تتحدى البيئة الجديدة المهاجرين القادمين من بلاد قاحلة الى بلاد غنية فتستفزهم وتحفزهم للعمل على الرغم من قساوة البيئة الجديدة نحوهم. والامثلة على ذلك كثيرة، اليهودي الذي هاجر للبلقان واوروبة الشرقية والحضرموتي الذي هاجر إلى اندونيسيا (جافا وسومطرا)، والسكوتلاندي في انكلتره، والكندي الافرنسي في الولايات المتحدة. ان كل هؤلاء لا يكلون ولا يملون في سبيل العمل على الوصول الى اهدافهم.

ولابد لنا من بحث موضوع البداوة وحالتها لما تكنه البداوة من عوامل التحدي والاسفتزاز. ولقد خصص لها فيلسوفنا الكبير ابن خلدون قسما مهما من مقدمته المعروفة وعلق على ذلك علامتنا الكبير الاستاذ ساطع الحصري بما هو معروف عنه من العلم الوافر والتحقيق العميق فنقول :

١ ــ ان حالة البَداوة (حالة البدو الرحل) تختلف اقتصاديا عن حالة الزراعة، لأن البداوة تشبه من بعض الوجوة الصناعة. فالفلاح ينتج المواد الاولية التي يمكنه ان يستهلكها بصورة مباشرة، واما البدوي فهو كصاحب المعمل يعيش من المواد الاولية التي يحولها من حالة الى حالة بواسطة الحيوانات، ثم يعيش هو من نتاج هذه الحيوانات كالحليب واللحم، ثم يكتسي من صوفها وجلدها. وهو مضطر الى ان يجد قوتا لحيواناته في زمان المواسم للمواسم نفسها وللفصول الباقية من السنة فيتنقل من مكان الى مكان ومن صحراء الى صحراء ومن بادية الى بادية، مما يتطلب جلداً كبيراً وصبراً وصفات عسكرية لا بد منها لادارة

القبيلة والنزول احيانا في ارض لا تخصها . وكذلك لابد لشيخ القبيلة من صفات سياسية تجعله يستعمل الحلم في بعض الاوقات مما يوفر عليه استعمال القوة التي لديه . وقد رأينا في التاريخ ان اكثر الانبياء كانوا من الرعاة الذين قادوا شعوبهم بنظام جديد، وفكرة جديدة أو ناموس جديد . والتاريخ مشحون بآثار القبائل الرحل التي طغت على المدنيات الزراعية المستكينة . ولم يكن ذلك تحت عامل الشر والسطوة والسيطرة كما يظن بعض الناس ، ولكن كان لاسباب قوية خارجة عن ارادتهم واجبرتهم على الانقياد لها واطاعتها اطاعة عمياء . ومن هذه الاسباب الخارجية أسباب دافعة واسباب جاذبة . فالبدوي تضغط عليه بيئته فتدفعه الى تركها الى مكان يتوفر فيه الماء والكلاء ، ثم تجذبه الامكنة التي يقطنها الفلاح ويستوطن فيها .

٢ ــ ولقد رأينا القبائل الرحل تغير على مدنيات مستوطنة زراعية وتبقى في اندفاعها مدة ثلاثة اجيال ثم ينطفىء عزمها بعد هذه المدة لعدم تمكنها من الاستمرار في الاندفاع . كل ذلك لأن حياة الاستيطان والاستقرار قد طابت لها فأقامت في المناطق

التي احتلتها الى ان سرى فيها الفساد بسبب ما نالته وتمتعت به من الرفاهية في حياتها الجديدة وبسبب عدم ميلها للعمل الزراعي المستقر وعدم هضمها له .

٣ ـ والدولة البدوية تكون في اندفاعها الاول قوية بسبب الصفات التي يتحلى بها البدو من فروسية وتنظيم ودراية وصبر ، تلك الصفات التي اكتسبوها اثناء رعايتهم في الصحاري ، ولكن إذا خرج البدوي من بيئته وانعدمت فيه عوامل الاستفزاز والتحدي فانه سريعا ما يفقد ميزته فينهار ما بناه من ممالك ودول ، بينما نجد ان رعاياه الذين أُخذوا على حين غرة واستعمرهم يستعيدون معنوياتهم رويداً رويداً لما تحداهم من عوامل الضغط ، ثم يتمكنون من طرد الغرباء او من دمجهم في بيئتهم دمجاً تاماً لأن البدو فقدوا صفاتهم الاساسية وصنعتهم التي كانوا يعيشون منها (تربية الحيونات) بينما استمر المحكومين في عملهم الزراعي كمنتجين من الوجهة الاقتصادية .

٤ ـ والبدوي لا يُعنى فقط بالحيوانات التي يعيش من انتاجها

بل هناك حيوانات اخرى تساعده على عمله كالكلب والجمل والحصان وهذه الحيوانات هي مفتاح المدنيات البدوية وسبب نجاحها وسر بقائها . حتى ان بعض الامبراطويات كالامبراطورية العثمانية استعملت الى جانب الحيوانات الرقيق من الامم المجاورة على مقياس واسع وعملت منهم مساعدن كجنود وقواد من غير ان تلتفت الى حسبهم أو نسبهم أو جنسهم .

٥ ــ والتاريخ حافل بالحروب والغزوات بين القوى البدوية وبين القوى المستوطنة من المزارعين والفلاحين . غير ان الحالة اخذت تتغير في الأزمنة الحديثة ، وجعلت كل دولة تسعى لاستيطان البدو وشدهم الى الارض المزروعة ، طلبا للاستقرار الداخلي وتأمينا للنظام بين عناصر الامة الواحدة من جهة ، وللسلام بين الدول المجاورة من جهة اخرى . لذلك نرى المناهج تتعدد لتأمين استيطان القبائل والعشائر وتوزيع الاراضي على افرادها ، وحفر الآبار الارتوازية في الصحراء لتأمين الماء والكلأ لها وتدريبها على اصول الزراعة حتى تستقر كل عشيرة في مكانها ولا تتعدى على جيرانها أو تغير على المناطق الزراعية .

حينما تتكون دولة مستقلة حول دولة كبيرة تشع منها انوار المدنية والتقدم الى الدول الناشئة حولها ، نرى ان الدولة التي في النواة والتي هي مصدر الاشعاع ، تضعف رويداً رويدا ، بينما الدول المحيطة بها تقوى وتتقدم على حسابها .

واحيانا يهاجر من الدولة الاصلية أو الام Métropole عدد كبير من المستعمرين فيعملون على شد الاواصر مع الدول الناشئة (كندا ، افريقية الجنوبية ، الولايات المتحدة ، اوسترالية ، بالنسبة لانكلتره . ثم اميركا اللاتينية بالنسبة لاسبانية) . وهذه الدول التي نشأت تدين بوجودها لما تدفق عليها من حيوية الدولة الام في اوروبة ، في الصناعة والتجارة والفكر . وهكذا نشأت دنيا جديدة . وهذه الحالة طبيعية لأنها نتيجة امتداد المدنية الاوروبية التي شعت من قارة اوروبا المنقسمة سياسيا الى عدد كبير من دول مرتبطة بعضها مع بعض على اساس توازن القوى Balance of power . اما البلاد الام (اوروبة) فقد اخذت رويداً

رويداً تفقد شيئاً من اهميتها وسيادتها لمصلحة الدول الناشئة (الولايات المتحدة).وفي التاريخ الوسيط نجد فلورنسة والبندقية وميلانو من الدول النواة تضعف بينما اخذت اسبانية وفرنسة وانكلترة تنشط شيئاً فشيئاً ويظهر بينها توازن قوي يجعل من كل منها نواة مركزية لدول ناشئة جديدة تقتبس منها الاشعاع ، فتقوى هذه بدورها وتضعف تلك لما تأخذه الاولى وتعطيه الثانية من الاشعاع .

وفي كل الحروب التي وقعت بين فرنسة واسبانية ، وفرنسة والنمسا على ارض ايطالية مدة اربعة قرون منذ شارل الثالث عشر الى نابليون الثالث لم يتمكن المحاربون من الحصول على نصر نهائي ، مما عزز نظرية توازن القوى حتى بعد تكون دولة ايطالية قوية . كلما ارادت احدى الدول العظمى الاخلال بهذا التوازن كانت تتألب عليها جميع الدول الباقية لوقفها عند حدها ، كما فعلت الدول بفرنسة في زمان نابليون الاول وفي المانيا في عهد غليوم الثاني وهتلر.

وربما وقعت الحرب العالمية الثالثة بنتيجة اختلال التوازن

بين الروسية وبين الديموقراطيات . وما دمنا في صدد الاشعاع ، فلا بد لنا هنا من الملاحظة الآتية ، وهي ان المدنية تتسرب عادة من البيئات المتقدمة الى البيئات المتأخرة أو الاقل مدنية. غير اننا نرى ان الدعوات الدينية القوية والثورات السياسية كثيراً ما تسربت من البيئات البدائية (Prolét ariot) الى البيئات المتقدمة الارستقراطية او البرجوازية . وفي عصرنا هذا رأينا الدعوة الشيوعية تسري من الروسية الى اوروبة واميركة وسائر العالم الاكثر مدنية. وربما كان ذلك بسبب الضغط الشديد الذي كانت تعانيه الطبقات الشعبية في الروسية القيصرية ، فكان التحدي قويا لدرجة انه ذهب بعيدا ليشمل العالم بأسره. وفي التاريخ الاسلامي تسربت الدعوة من الحجاز القاحل الى بلاد الامبراطوريتين الرومانية والفارسية .

هذه هي الاسس العامة لنظرية التحدي وقد رأينا ان ندرس تحدي الصهيونية للعالم العربي على نور هذه العوامل علنا نتوفق للاهتداء الى التأثيرات المنتظرة من هذا التحدي .

هنالك قوتان في كل تحد: قوة مهاجمة تتحدى وقوة مدافعة يقع عليها التحدي . فالقوة التي تحدت العرب في فلسطين هي الصهيونية، والقوة المدافعة هي فلسطين والعالم العربي من حولها. وقبل ان ندرس معادلة التحدي هذا نرى من الضروي دراسة كل كفة من كفتي المعادلة دراسة مستقلة.

١ – الصهيونية

الصهيونية هي ما اتفق على تسميته باليهودية العالمية، وهي تشمل في الحقيقة كل يهودي في العالم بصرف النظر عن جنسيته الرسمية ولغته . وهي تهدف الى انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وبما ان فلسطين يسكنها العرب فالصهيونية هدفت منذ قيامها لانتزاعها من اصحابها واغتصابها منهم لتجعل منها وطنا لشراذم اليهود في العالم .

قال الدكتور قسطنطين زريق في الصفحة الثامنة من كتابه « معنى النكبة » : على ان من العدل والانصاف ان نسرع فنقول ان اسباب هذه الكارثة لا تعود كلها الى العرب انفسهم. فالعدو

المتصدي لهم قوي الشكيمة، غزير الموارد، بعيد الاثر، قضى السنين، بل الاجيال وهو يتأهب لهذا الصراع، وقد بث نفوذه وسلطته في مشارق الارض ومغاربها واستولى على كثير من مصادر القوى في الدول العظمى، حتى دانت هذه له او اضطرت الى ممالاته. وهو اذا حشد قواه على احدى هذه الدول اتعبها واستأثر بكثير من مصالحها، كما اظهر التاريخ البعيد والقريب فعلاً في كل من دول الارض العظمى. فكيف به وقد نازل امة لم تزل في بدء نهضتها، وفي المرحلة الاولى من تكونها الاجتماعي والسياسي — امة ظلت قرونا مقهورة على نفسها بحكم استبدادي كاد يجردها عن ذاتها، وما لبثت منذ ان خلعت عن نفسها هذا الحكم الثقيل تسعى لانتزاع حريتها واستقلالها من اقوى امم الارض وابعدها نفوذا؟؟ ليست الصهيونية تلك الجوالي والمستعمرات المنتشرة في فلسطين فحسب وانما هي الشبكة العالمية، المجهزة علما ومالاً، المسيطرة في بلاد العالم، النافذة، المسخرة كل قواها لتحقيق هدفها في بناء وطن لابنائها في فلسطين.

وجاء في الصفحة الواحدة والعشرين عن خطر الصهيونية

قوله : «... فلا السودنة، ولا معاهدة بورتسموث، ولا قضية النقد السوري اللبناني ، ولا اي شكل من المشاكل المشابهة توازي الصهيونية خطراً وبعد اثر. اذ ما تمثله من استعمار وعبودية شر زائل يوما مهما بعدت ايامه وطالت جذوره . اما الاستعمار الصهيوني ، فغايته ابدال وطن بوطن وافناء قوم ليحل محله قوم آخر : هو الاستعمار العادي المجرد بأوضح الوانه وافظع اشكاله. وعلى هذا ، فلا يجوزان يشغلنا عنه شاغل ، حتى تلك المشاكل القومية التي اقضت مضاجع حكوماتنا وما تزال. هذا اذا صرفنا النظر عن السياسات التافهة ، والمنعنات الضارة والمنافسات الحزبية والشهوات المحلية ، التي كان يجب ان تلم اذيالها وتستحيي وتختفي من الميدان في هذا الظرف العصيب ، وتجاه الخطر الجاثم».

وقال : «المهم في هذا التنبيه الداخلي ان يستقر في الذهن العربي وفي النفس العربية ان الخطر الصهيوني هو الخطر الاعظم على الكيان العربي. إن الاخطار الاخرى تتوجه الى بعض اجزاء هذا الكيان ونواحيه ، او تشمل العالم العربي وسواه من اجزاء المعمور . اما هذا الخطر فهو موجه الى الكيان العربي بذاته ،

بمجموعه ، بأسس وجوده وكل ما سواه هين بالنسبة اليه ، ويمكن ان تتسامح به ، او يؤجل حله ؛ في سبيل دفع هذا الخطر الاشد وصيانة النفس منه » . وجاء في الصفحة ٤٣ ايضا : « الصهيونيون لم يكن لهم وطن قائم بالمعنى الطبيعي الاول فنسجوا من تاريخهم القديم ومن آلامهم الحاضرة وآمالهم للمستقبل حلما وعمدوا الى تحقيقه في ارض غير ارضهم وقطعوا في هذا التحقيق شوطا غير قصير ، وسلاحهم في ذلك تغلغل هذا الحلم وارادة تحقيقه في صميم حياتهم واتحادهم في هذه الارادة ، وتأصل نفوسهم في الحياة الغربية الحديثة ، واستعدادهم لكل تقدم وتوثب » وجاء في الصحيفة ٧٩ : « سيكون هذا الصراع (يعني بين العرب والصهيونيين ، عنيفا طويلا وسيتطلب من العرب اعظم جهد وابلغ تضحية . واذا هم لم يبذلوا هذا المطلوب ولم يضحوا بالغالي والرخيص في هذا السبيل فقد عرضوا انفسهم لخطر هائل يهددهم في جميع اقطارهم ومنازلهم . فلو اقيمت دولة يهودية فعلا في فلسطين (والدكتور يتكلم في اول سنة ١٩٤٨) وتركزت دوليا باعتراف الامم المتحدة وسائر الدول بها ، فلن يطول الوقت

حتى يصبح لها اكبر قوة جوية في الشرق الادنى، وحتى نرى لها ـ لا سمح الله ـ اسطولا تجاريا وحربيا يسيطر على هذه الشواطىء بكاملها، وجيشا ميكانيكيا منظما مدعوما بالذخائر الوافرة والاختراعات الجهنمية. وستفتح هذه الدولة ابوابها لألوف المهاجرين يتدفقون عليها من اوروبة وملايين الدولارات تنصب عليها من اميركة، فتغدو قوة بشرية ومالية يصعب حصرها في منطقتها، فتتسرب بكل شكل ممكن الى بقية البلدان العربية. وفي حال اضطراب عالمي تشكل خطرا عظيما على هذه البلدان. ويزيد في هذا الخطر أنها تحتل الشواطىء والمنافذ البحرية، وتقوم في بقعة حيوية بين البلاد العربية. ففلسطين بمثابة الجسر بين هذه البلاد اذا استولت عليه ايد غريبة قطعت بينه العلاقات وفكت عرى التعاون والاتحاد.

« سيكون كفاح العرب عنيفا مديدا وسيقويهم في كفاحهم هذا انهم يردون عن انفسهم خطراً في اشد ما عرفوه في تاريخهم هولا وجسامة، خطرا يهددهم بالزوال والانهيار. وسيقويهم في كفاحهم انهم في جانب الحق والمبدأ، يجابهون القوة والمصلحة

في افظع اشكالها ، فتتغلب القوة على الحق والمصلحة على المبدأ حينا ولكنها لن تتغلب اخيراً . فبورك البذل وبورکت الضحايا في هذا الجهاد الكريم المقدس » . ثم يقول ايضا في صحيفة ٨١ : « وفي الواقع ان البلاد العربية لم تجابه في تاريخها الطويل خطراً اشد من هذا الذي تتعرض له اليوم . فان القوى التي يملكها الصهيونيون في شتى انحاء العالم كفيلة اذا تسنى لها ان تستقر في فلسطين بأن تهدد استقلال جميع البلاد العربية وتكون خطراً دائماً على حياتها . وان ما لهذه القوى من وسائل النمو والتوسع سيجعل العالم العربي ابدا تحت رحمتها وسيشل حيويته ويصرفه عن التقدم والتطور في معارج الرقي والعمران . هذا اذا قدر له البَقاء . فنحن نجاهد اذن بالدرجة الاولى دفعا لاعتداء غادر علينا ومحافظة على ذات وجودنا » .

فالصهيونية كما رأينا هي قوة اليهود العالمية التي تهدف لانشاء وطن قومي في فلسطين وتعتقد ان مجالها الحيوي يلزم ان يكون بين الفرات والنيل وقد قالت الهيئة العربية العليا في فلسطين في احدى تقاريرها : « ان مطامع اليَهود لا تقف عند

فلسطين فحسب ، بل انهم يطمعون في الاستيلاء على شرقي الاردن وعلى اقسام من الاقطار العربية المجاورة بما في ذلك بعض الاماكن في الحجاز. فزعماء اليهود يعلنون بأن فلسطين لا تتسع لهم وانها ليست الا الخطوة الاولى ويصرخون علانيَة بأن حدود الدولة اليَهودية هي بين الفرات والنيل. وكذلك فأن لهم مطامع خطيرة في الحجاز ولا سيما في الاماكن المجاورة لاراضي خيَبر وبني النضير وغيرهما من الاراضي التي كانوا يقطنونها عند ظهور الاسلام ومنها قسم من المدينة المنورة نفسها . ولعل في هذه الاطماع تفسيراً جزئياً على الاقل في استماتة اليهود في سبيل الوصول الى العقبة . وقد بلغت بهم القحة ان عرضوا في سنة ١٩٤٥ على المملكة العربية السعودية مبلغ عشرين مليون جنيه من الذهب مقابل وضع يدهم على اراضي خيبر (في الحجاز) وما حولها ، وقد رفض طلبهم طبعا . ومما يزيد في خطورة الاطماع وفي خطر تحقيقها انه لا مندوحة لليهود عن توسيع رقعة دولتهم وزيادة عدد سكانها والسيطَرة على اسواق الشرق اذا ارادوا ان تستقر دولتهم . ويساعدهم

على ذلك ما يتمتعون به من نفوذ سياسي عالمي وسيطرة مالية تضمن غزو الاسواق الشرقية واستغلال خيراتها الدفينة . ولا يخفى ما يكمن وراء هذا التوسع اليهودي من خطر عظيم .

ومن الدلائل القاطعة على ان اليهود سائرون لتطبيق مشاريعهم التوسيعية هو انسجام وسائلهم واعمالهم مع الاهداف التي عينوها لانفسهم . فقد ظن فريق من العرب ان اليهود سيحترمون الهدنة أو الهُدَن التي وقعوا عليها مع سائر الدول العربية ، بيد ان الوقائع اظهرت العكس فانهم يسيرون كل يوم مسافة جديدة في سبيل الحصول على اراض عربية يطردون سكانها العرب منها كما فعلوا اخيراً في منطقتي غزة والاردن تحت سمع مراقبي الهدنة وبصرهم بينما تتلهى الدول العربية بالاحتجاجات التي لا طائل تحتها . وانا ننقل هنا بعض ما ذكرت الجرائد العربية بهذا الصدد ، فقد قالت الحياة في عددها الصادر في ٨/٩/١٩٥٠ في باب دنيا العرب وتحت عنوان الرقابة على الهدنة ، وذلك تعليقاً على الأنباء الواردة من فلسطين والتي اثبتت طرد اليهود لالوف من العرب من ديارهم بالطائرات والمدافع الرشاشة . قالت الحياة

الغراء : « نزداد يقينا كلما توالت (حوادث الحدود) بين العرب واليهود بأن جهاز الرقابة على الهدنة يحتل اختلالا خطراً يدفع العرب ثمنه الاكبر .

ويبدو لنا اليوم اوضح من الايام السابقة ان تنقل الجنرال رايلي بين الجبهات كلما سمع بحادث في احداها أصبح شبيها بلعبة (التعمية) بينه وبين اليهود والعرب في وسطها . فما يكاد يطير هو الى القدس حتى يضرب العدو ضربه صوب مصر ، فإذا انتقل الى النقب سددت الضربة الى حدود لبنان ، فما يكاد يدركها حتى تأتي الضربة في المثلث او الخليل . ؟ ! !

ومن عجب ان الجنرال رايلي الذي سرح ثلاثة ارباع موظفيه من مراقبي الهدنة لم يفكر مذ تكاثرت الاعتداءات المكشوفة على العرب الباقين تحت السلطان اليهودي والقريبين منه معا بأن يزيد عدد مراقبيه مثلا .

ومن حقنا ان يخطر ببالنا ان حامي الهدنة هذا ينقلب قصداً أو عمداً الى حرامي يساعد الحكام اليهود في المكيدة الجديدة التي يدبرونها للتخلص من آخر اثر للعرب في دولتهم أو لاخراج

عدد من العرب يوازي بالاقل العدد الذي اعادوه من النازحين باسم « جمع شتات العائلات العربية » .

ومن حقنا فوق ذلك ان نسأل الحكومات العربية : هل هي راضية بهذا الرقيب الدولي ، وهل هي قانعة بتنقلاته المسرحية وبعتبه من حين الى حين على اليهود عتب الاحبة ! وهل تعتزم ان تصبر الى الأبد على هذه الهدنة العرجاء وتنام عن .... على النازحين ؟

ثم عقدت جريدة الحياة افتتاحية بعددها الصادر في ١٠ /٨ سنة ١٩٥٠ تحت عنوان : سوام أم بشر ؟ قالت فيه :

يقول المثل : « لايلدغ المؤمن من جحر مرتين ». وقد لدغنا — نحن العرب — مائة مرة من اسرائيل فطار ايماننا وتبخر وجودنا ومع ذلك فهي لاتزال تجد من يدهشه طرد الفي عربي من اسرائيل !

تقول انباء الامس ان الدول العربية بدأت تغرق الامم المتحده ببرقيات الاحتجاج على طرد بضعة آلاف عربي من اسرائيل في الايام الاخيرة معربة عن دهشتها من هذا التدبير . ولكن بالله

عليكم ايها السادة ، هل توقعتم غير ذلك من حكام تل ابيب ؟ انستغربون ان يطرد اليهود بضعة آلاف عربي وهم الذين شردوا مليون عربي وانكروا عليهم حقهم في العودة الى فلسطين ؟ اليس في قيام الدولة الاسرائيلية واستقرارها الانذار القاطع بأن اليهود لن يتركوا عربياً في فلسطين وانهم لن يتوانوا اذا استطاعوا عن القاء آخر عربي في البحر (من الفرات الى النيل حدودك يا اسرائيل).

ففي الوقت الذى تقرر فيه اسرائيل جباية مليار دولار لاسكان بضعة ملايين يهودي في الاراضي المغتصبة يصبح اخراج الفي عربي لعبة اطفال بالنسبة الى النيات المبيتة للعرب اجمعين في المستقبل القريب . وليس لنا ان نلوم اليهود فنهم يعملون على المكشوف ويعلنون خطتهم على المكشوف ويتحدوننا على المكشوف . فاذا كنا نحن سواما لا تفهم ولا يهمها من دنياها الا الاكل والنوم والالقاب الفارغة وشهوات النفس الامارة بالسوء فاننا نستحق هذا المصير .

ان معركة فلسطين لم تنته بهذه الهدن الحقيرة ، ولا يمكن ان تقف عند صلح او معاهدة . انها معركة الشرق بأسره ، فاما ان

يحتله اليهود ويطردوا منه آخر عربي او نمحق نحن اسرائيل ونلقي آخر صهيوني في البحر. وليس مفروضا في السوام والصخور ان تفهم هذه الحقيقة بل يطلب ذلك من الذين يعتبرون انفسهم بشراً واسياد بشر ... مع حفظ الالقاب .

ولم تتوان بقية الصحف العربية عن الاحتجاج على هذه الحالة ، ولكننا اوردنا ما ذكرته الحياة مثلا على ما ذكرته الصحف بهذا الخصوص .

ومن هذه الصحف جريدة المصري ، فقد قالت في عددها الصادر بتاريخ ٧ / ٩ / ١٩٤٠ تحت عنوان يوم كيوم فلسطين :

« نعتقد ان ما يعمد اليه العرب من الشكوى كلما وقع عدوان جديد من اسرائيل عليهم انما هو من قبيل (اضعف الايمان). فما قيمة الشكوى الى هيئة الامم اوغيرها من الجهات الدولية اذا كانت لا تصل الى آذان مفتوحة ولا تصادف قلوبا رحيمة . وعلى أي حال فان الشاكي دائما في مركز الضعف والمشكو منه في مركز القوة. ولقد كان من الطبيعي ان يكون العرب في المركز الاول وان تكون اسرائيل في المركز الثاني . ولكن تخاذل العرب وتدابيرهم

وطواعيتهم لتحكم الدسائس الاجنبية فيهم ، كل ذلك اضعف من شأنهم واطمع العدو فيهم حتى غدا يتعالى عليهم ويستهين بهم ولا يقيم لهم وزنا ولا يحسب لهم حسابا . لقد اصبح من المخجل للعرب أن تغاديهم الصحف العربية الحرة وتراوحهم في جميع الدول العربية بأنباء العدوان اليهودي على العرب العزل وتصوير الفظائع التي يتعرض لها الاطفال والنساء والشيوخ ، كأن مهمة الصحافة مقصورة على التسجيل والتقليد وكأن الرأي العام العربي قد خدر حتى اصبح لا يثور لهذه الفظائع ولا يتوجع لاخوانه المعتدى عليهم ، بل صار ينظر الى هذه المآسي نظرته الى قضاء واقع وامر لازب ورواية لا بد ان تتم فصولاً . وإن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ ان يتشدق الدعاة العرب بوجوب عودة اللاجئين الذين اخرجوا من ديارهم وجردوا من اموالهم الى مواطنهم ، بينما اسرائيل ماضية في سياستها فهي تطرد في كل يوم المئين والالوف من العرب الذين لا يزالون مقيمين في ديارهم وتضيف بذلك الى المطرودين القدامى طوائف جديدة وهذا منتهى العجب وغاية التناقض بين رغبات العرب وتصميم اسرائيل . ذلك ان العرب يريدون ارجاع

المطرودين الى ديارهم في حين ان اسرائيل تعمل جاهدة مصممة على ان لا يبقى في فلسطين عربي واحد .

والعرب يسلكون الى تحقيق رغباتهم وسائل لينة من قبيل خطرات النسيم ولمس الحرير بينما يكل اليهود تنفيذ ارادتهم الى فوهات المدافع وانابيب البنادق .

العرب يشكون الى هيئة الامم واسرائيل تفزع الى السلاح وتعمد الى الكفاح . والعرب يسالمون ويهادنون واليهود يتحرشون ويتوثبون . وهذا كله يقع ولم يمض على قيام الدولة — التي لا يزال يحلو لبعض الصحف وصفها بالمزعومة — غير زمن قليل ، فكيف يكون الحال اذا استطال بها الوقت واتتها الفرص ومكنت من اسباب البقاء والاستقرار .

الا ان الامر جد والحال خطيرة . ولكن يظهر ان العرب مشغولون عنها بالتوافه والصغائر ، وكل بلد عربي تستغرقه مشاكله الداخلية وتستحوذ على اهتمامه اموره المحلية من تنافس الاحزاب وتنازع السلطات . ولا شك في ان من كانت هذه حاله لا يستطيع ان يمد بصره الى ابعد من موطىء قدمه . واشد

ما يخشاه المفكرون ان يظل العرب على ما هم عليه اليوم من تواكل واستهتار حتى يجيء اليوم الذي تغزوهم فيه اسرائيل في ديارهم دولة بعد اخرى وتخرجهم منها وتمثل بهم كما تمثل الآن بعرب فلسطين . وما لم يستيقظ العرب ويقدروا الخطر المحيط بهم حق قدره ويتخذوا من التدابير الفعالة والخطط الحازمة الرادعة ما يدرأ عنهم الشر ويجنبهم الاذى وإلا فان ذلك اليوم ليس ببعيد».

١ ـ استعداد اليهود للمستقبل

ان من المنتظر ان تقوم في اسرائيل حركة استعداد واسعة النطاق لجمع القوى وحشدها في سبيل اقرار الامر الواقع والتوسع في المناطق المجاورة . وقد قرر المؤتمر اليهودى المنعقد في القدس في جلسته الختامية (١٩٥٠/٩/٧) البت بمشاريع القادمين اليهود من انحاء العالم الى اسرائيل في ثلاث سنوات . (وقد اقر المؤتمر في هذه الجلسة عقد قرض شعبي من يهود الولايات المتحدة قدره الف مليون دولار وذلك بطرق ثلاث :

اولا ـ حفز اعمال الجباة اليهود في اميركا .

ثانيا ـ السعي لاشراف يهود الولايات المتحدة على جباية القرض .

ثالثا ـ تشجيع اصحاب رؤوس الاموال الاميركية على استثمار اموالهم في اسرائيل .

وقد اسفر المؤتمر عن النتائج الآتية :

١ ـ الوطن الاسرائيلي مفتوحة ابوابه لجميع اليهود والمشردين منهم الراغبين في العودة الى فلسطين .

٢ ـ بذل اقصى المساعي لاقرار القادمين واسكانهم وجعلهم مستوطنين مستقرين .

٣ ـ يعرب المؤتمر عن ثقته بأن تكون اسرائيل قريبا مستقلة استقلالاً اقتصاديا كاملا وان تكون عاملا هاما في ترقية الشرق الاوسط بأسره .

والمهم في استعداد اسرائيل انها تسعى لهضم فلسطين العربية شيئاً فشيئاً وللتوسع في بعض المناطق التي كانت في حوزة الدول العربية حسب الهدن المتعاقبة . وقد رأينا مهزلة احتلال القوات اليهودية لمنطقة روتنبرغ ومعامل البوتاس في البحر الميت ، وكيف ان شرق الاردن تراجعت عن تنفيذ الانذار الذي وجهته لليهود بالانسحاب في ظرف اربعة ايام .

٢ - استعداد اليهود الصناعي

اخذ اليهود بعد ان استتب لهم الامر اخيراً في فلسطين بنقل عشرات المعامل الكبيرة من المنطقة الغربية في المانيا وغيرها الى فلسطين فشيدوا لها الابنية الحديثة واعدوها لغزو الشرق الاوسط بمختلف الصناعات الحديثة والمنتوجات المختلفة وانفقوا على ذلك الملايين من الجنيهات ، وسخروا لانشائها واقامتها عشرات الالوف من المهاجرين . وهم ينتظرون بفارغ صبر عقد الصلح مع الدول العربية لاغراق اسواقها بمنتوجاتهم الصهيونية . ومن الطبيعي انهم يعملون لاقامة العراقيل في وجه الصناعات في البلاد العربية وهم ينشرون الدعايات ضد البلاد العربية بقولهم :

« ان على البلاد العربية ان تتجه فقط نحو تقوية زراعتها ، وانها غير ناجحة في تكوين صناعتها » . كل ذلك غايته جعل البلاد العربية سوقا لاسرائيل ، مع العلم بان الصناعة هي عماد الدول الحديثة وسبب رقيها . ان البلاد تستطيع ان تتقدم من طريق الصناعة بسرعة في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ولا تألو الدول الغربية ، وامريكا وانكلترا على

الاخص جهداً لمساعدة اسرائيل بمختلف الوسائل والحيل ، وهي التي ضغطت على المانية الغربية لتدفع الى اسرائيل مبالغ طائلة لتعويض اليهود عن النكبات التي انزلها بهم النازيون في عهد هتلر . هذا بالاضافة الى الملايين من الدولارات التي تتبرع بها اميركة الى اسرائيل مباشرة وبطرق شتى .

٣ - اليهود في البلاد العربية

اخذ اليهود الموجودون في البلدان العربيـة ينزحون منها الى الخارج تحت مختلف الحجج كالاصطياف او الاستشفاء . ومن هناك يتسللون الى فلسطين بواسطة عملاء ومعتمدين لحكومة اسرائيل في ايطاليا وفرنسا واليونان وكريت وقبرص وغيرها، حاملين اموالهم التي ابتزوهـا من ثروة هذه البلاد العربيـة لنقلها الى اسرائيل .

ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا العمل من الحاق اشد الاذى بالاقطار العربية قاطبة، فان هجرة يهود الاقطار العربيـة الى اسرائيل تزيد في عدد سكان اليهود فيها وبالتالي تزيد في خطرهم السياسي والاقتصادي والعسكري على البلاد العربية، كما انها

تدعم موقفهم في عدم السماح بعودة اللاجئين العرب بحجة اكتظاظ البلاد بالسكان وعدم وجود ما يكفي لايوائهم من اماكن ودور سكن.

ولا شك ان اخراج هذه الاموال من الاقطار العربية مما يضر بحالتها المالية والاقتصادية ومما يدعم الحالة الاقتصادية للدولة اليهودية في اسرائيل ويوفي لها رؤوس اموال جديدة (بالاضافة لما وضعت يدها عليه من اموال العرب في فلسطين ويقدر بألفي مليون جنيها فلسطينيا) تستعملها في مختلف المشاريع التي يهدف اليهود من ورائها الى السيطرة على اسواق البلاد العربية سيطرة تامة.

ثم ان في بقاء اليهود ورؤوس اموالهم في الاقطار العربية ما يساعد الدول العربية على تحقيق خطتها في اعادة اللاجئين العرب الى فلسطين وحمايتهم بعد عودتهم اليها بينما هجرتهم الى فلسطين تزيد في التصميم على رفض هذه الاعادة.

٤ – سياسة اليهود الاقتصادية

نحن من الذين يقولون بلزوم مقاطعة اسرائيل اقتصاديا حتى لا تتمكن من الافادة من الاسواق العربية لتنشيط صناعتها وتشغيل عمالها على حساب العرب . غير انه من الضروري ان نلفت الانظار ايضا الى الجهود الجبارة التي يقوم بها اعداؤنا في اسرائيل في سبيل تدعيم اقتصادياتهم وتكييفها حسب اهدافهم السياسية والعسكرية .

يعيش اليهود اليوم في اسرائيل حياة (التقنين) التي عرفها الانكليز و كثير من الدول الغربية في ايام الحرب الاخيرة . فلا لحم الا يومين في الاسبوع ، ولا بيض الا بيضة لكل فرد في تلك المدة . حتى البرتقال فانه مقنن ، واكثره برسم التصدير . وقد رأينا في بعض الاحصائيات انهم صدروا الى تشكوسلوفاكيا خمسين مليون بيضة لمشترى السلاح منها . اما الكماليات فمعدومة تقريبا . انهم يعملون عمل الامم التي تريد ان تعيش ويشدون الحزام على بطونهم وينفقون اموالهم الطائلة بحساب دقيق موزع على الضروري من وسائل المعيشة لكي يبقى لديهم مجال واسع

للانفاق على تقوية الجيش وعلى التسليح وبناء المساكن وايجاد العمل للمهاجرين اليهود. ثم نحن لا نجدهم بعد ذلك مكتوفي الايدي في سبيل فك الحصار الاقتصادي الذي ضربته عليهم البلاد العربية. فشركاتهم تعمل على استيراد ما يحتاجون اليه من قبرص وتركية وايطالية وفرنسة واميركة واستراليا والارجنتين. ولكن غايتهم الاساسية ليست في المشتري ولكن في مبيع منتوجاتهم الغالية — الغالية بسبب ارتفاع الاجور وغلاء المواد الخام — الى البلاد العربية التي يريدونها زراعية لتكون سوقا رائجة لمصنوعاتهم. ولهذا نراهم يضغطون على الدول العربية بواسطة الولايات المتحدة وبريطانية لاجراء الصلح.

نحن لا نقول ان حالة اسرائيل الاقتصادية حسنة، ولكن نقول ان اليهود يتجرعون امرّ العلاجات في سبيل تقويم هذه الحالة وتدبير امورهم، هذا الى جانب ما يتمتعون به من الثروة المالية الضخمة في الخارج يستغلونها ويحصدون منها الايراد الوفير الذي يخفف من حراجة واقعهم الاقتصادي.

وقد اعترفت احدى البعثات التي اوفدتها الامم المتحدة الى الشرق الاوسط بهذه الحراجة فقالت في احدى تقاريرها : « ان اسرائيل لا يمكنها المحافظة على مستوى معيشتها الحالي مهما تفننت في استثمار مواردها . ان مستوى معيشة سكانها المرتفع ونفقات الدولة المتزايدة وتدفق المهاجرين تزيد متاعبها اضعافا مضاعفة. وبالاختصار ، يجب علينا نحن العرب ان لا نهوّن من امر اسرائيل ولا ان نبالغ بحدة الازمة الاقتصادية التي تعانيها . ان المهم في الموضوع هو ان يعمل العرب على تقوية جيوشهم وانشاء صناعات كبيرة وضرب نطاق مقاطعة اقتصادية قوية حول اسرائيل ، لأن المقاطعة الاقتصادية الحالية هي الى الهزل اقرب منها الى الجد . وقد انتبهت الجامعة العربية اخيراً لاهمية المقاطعة الاقتصادية وشكلت مراكز خاصة لهذا الغرض. ونحن نعتقد انها وفقت جزئيا في جهودها تلك .

٥ - العرب

اما الكفة الثانية من معادلة التحدي فهم العرب ، ونعني بالعرب :

اولا ــ عرب فلسطين .

ثانيا ـ الدول العربية المجاورة او القريبة من فلسطين، فقد اصطلح على تسميتها بدول الجامعة العربية السبع .

وكما ان لليهود حلفاء في العالم الغربي ، فأن وراء العرب ايضا العالم الاسلامي، وعرب المهجر، والى حد ما دول امير كا اللاتينية.

اما عرب فلسطين فقد كانوا في الخط الاول من النار ، فوقفوا امام اليهود وجها لوجه في نضال مستمر منذ سنة ١٩١٩ حتى ايار سنة ١٩٤٨ ، اي تاريخ انسحاب حكومة الانتداب البريطانية من فلسطين. وكان من واجب الحكومات العربية او العرب الموجودين في خطوط الدفاع الخلفية مد اخوانهم في الخط الاول، بكل ما يلزمهم من عتاد ومال وسلاح . وكانت هذه السياسة قد تقررت في اجتماعات اللجنة السياسية التابعة للجامعة العربية في عالية بتاريخ ٨ ـ ١٠ ـ ١٩٤٧ ولكن هذه بقيت حبراً على ورق .

اسباب هزيمة العرب في فلسطين

١ ـ واذا ما ذكرنا كارثة فلسطين وتكوين الدولة الاسرائيلية في وسط المجموعة العربية تشطرها شطرين وتتحداها

في الصميم ، فإنه لا بد لنا من ذكر الاخطاء الاساسية التي ارتكبها العرب في حرب فلسطين. ان اول هذه الأخطاء واهمها قاطبة هو سياسة الاعتماد على غير الفلسطينيين انفسهم في محاربة اليهود ومساجلتهم القتال. ولقد ذكرنا بأن اللجنة العسكرية المختصة قررت في اكتوبر سنة ١٩٤٧ في اجتماع الجامعة العربية في عالية لبنان، ان الخطة المثلى في الدفاع عن فلسطين هي التعويل على عرب فلسطين انفسهم ، على ان تعاونهم الدول العربية بتسليحهم وتدريبهم وتحصين قراهم ، اي ان تضعهم في مثل الوضع اليهودي في فلسطين. ولقد وافق مجلس الجامعة على تقرير هذه الخطة بالتعويل على عرب فلسطين ثم على المتطوعين. اما الجيوش العربية فتقف على الحدود مترقبة. ولقد كانت هذه هي الخطة المثلى المتفق عليها ، ولكن حدث بعد ذلك ان تدفق الشبان الفلسطينيون الى معسكر قطنة في دمشق للتدرب على استعمال الاسلحة المختلفة لمقاومة الغزوة الصهيونية فبعثت الحكومة البريطانية الى الحكومة السورية بكتاب دوري قالت

فيه انها تعتبر تدريب الفلسطينيين عملاً غير ودي موجهاً اليها ، فحبطت عملية التدريب ، فعومل الفلسطينيون معاملة سيئة لتنفيرهم من المعسكر المذكور ، حتى انه لم يبق منهم احد هناك. وبذلك وقف تسليح عرب فلسطين وتدريبهم وتحصينهم ، وترتب على ذلك ايضاً العدول عن الخطة المقررة . ثم ان الكفاح بين العرب والمسلمين كما قال رئيس الهيئة العربية العليا في فلسطين في محاكمة الاخوان المسلمين : « ان كفاح فلسطين هو كفاح بين عقيدتين متناقضتين : العقيدة العربية والعقيدة الصهيونية . فالسلاح الأول في هذه المعركة انما هو الايمان والعقيدة . ولقد فطن الاعداء الى هذه الحقيقة فوجهوا كل همهم الى ابعاد العناصر المؤمنة منا عن ميدان المعركة ثم ثنّوا بالسعي لابعاد الفريق الثاني في الاهمية ، وهم المتطوعون من العرب كالاخوان المسلمين وغيرهم . كل ذلك حتى يخلو الميدان فلا يبقى فيه الا الجنود . النظامية وبذلك استطاعوا ان يأمنوا ابعاد العناصر المصممة تصميما ابديا على الكفاح » .

وهكذا نرى ان الفلسطينيين حرموا بصورة منظمة من

المساعدات الاساسية، وان سياسة الجامعة العربية اخذت اتجاها صريحا ضد قراراتها التي اتخذتها في اجتماعات عاليه (لبنان)، وكأنها قررت بذلك ابعاد اهل فلسطين عن قضيتهم، مما حرم القضية من جهود اهلها. ولو ان الاسلحة والاموال توفرت للمجاهدين الفلسطينيين، وهم الذين صمدوا امام الاستعمار والصهيونية ثلاثين عاما، ولو لم تقم العراقيل العظيمة في وجههم، لتمكن عرب فلسطين وحدهم من القضاء على الدولة اليهودية. حتى ان الجيش الذي الفته الجامعة العربية وارسلته الى فلسطين وانفقت عليه مليونين من الجنيهات الفلسطينية (ما يعادل عشرين مليون ليرة سورية لبنانية)، لم يقم بعمل ما وجدت قواه في مثلث الرعب (نابلس، طول كرم، جنين). وقد نشرت لجنة الدفاع عن فلسطين في بغداد كتابا حافلا عن جيش الانقاذ نلفت اليه الانظار. ولعل الامة العربية تستيقظ من غفوتها فتقيم للقضية الفلسطينية محاكمة عادلة شاملة فتظهر حينئذ حقائق مدفونة يكاد يطمس عليها الدهر، ولكن الامل عظيم ان تتدارك مصر وسوريا هذا الامر، فتفتح باب محاكمة المسؤولين عن كارثة فلسطين فتبيض وجوه

وتسود وجوه ، والامور على كل حال ، مرهونة بأوقاتها .

ولا ننس في هذه البرهة من الزمن المساعدة او المساعدات القيمة التي قدمتها حكومة الانتداب قبل انسحابها الى اليهود ، فقد مهدت لهم الاستيلاء على حيفا ثم يافا ثم اللد والرملة حسب الخطط التي رسمها قائد الجيش الاردني كلوب باشا منشىء الجيش العربي .

والآن لننتقل الى دور الدول العربية وجيوشها مباشرة بعد ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ لقد كان من الممكن ان تكفر الدول العربية عن اخطائها السابقة تجاه اهل فلسطين بانزال الضربة القاضية على اليهود ، وكفى الله المؤمنين القتال . ودخلت الجيوش العربية فلسطين وسارت في طريق صحيح ، وكانت تل ابيب على وشك السقوط بيدها . وكان اليهود في القدس ، وهم اكثر من مئة الف ، على وشك التسليم بعد ان كادوا يهلكون عطشا . ولما رأت بريطانيا الجيوش العربية تكاد تقضي على الدولة اليهودية اعلنت ان منطقة حيفا لا تزال تحت ارادتها وانها ستقاوم كل من يعتدي عليها . وفي ٢١ نيسان ١٩٤٨ احتل اليهود حيفا ، ولم تحرك

بريطانيا ساكنا ضد اليهود الذين اعتدوا عليها) . وكان قصد الانكليز من هذه الحيلة ان يحفظوا لليهود معقلا يلجأون اليه عند انهزامهم وانهيار مقاومتهم ، فاذا بالهدنة الاولى (٩ يونيو ١٩٤٨) تقع بغتة ، بتأثير تهديد الاردن لمجلس جامعة الدول العربية بالانسحاب منها وبسحب الجيش الاردني من ميدان القتال . فكانت هذه الهدنة الاجرامية ثالثة الكوارث على اهل فلسطين وفاتحة النكبات على الجيوش العربية ، لأن اليهود لمواشعثهم وجلبوا السلاح والزاد واستعادوا ثقتهم بأنفسهم . بعدئذ استولوا على معظم مدن فلسطين واراضيها العامرة وشتتوا سكانها العرب وتمت هزيمة العالم العربي كله بسبب هذه الهدنة . فيحق لنا بعد ذلك ان نسمي ما حصل في فلسطين : كارثة الهدنة.

فما هذه الهدنة ؟

الهدنة هي توقف الجيوش العربية عن الزحف على الأراضي وتمكين اليهود في فلسطين من الاتصال بالصهيونية العالمية لتزويدهم بكل ما يحتاجون اليه من سلاح وعتاد . وبمجرد هذا الاتصال تمكن اليهود من جلب ما اعدوه في الموانيء الاميركية والاوروبية

ليستعملوها ضد العرب . وقد سارع اعوان اليهود من الدول العظمى لتسهيل الامور لهم بحراً وجوا . ومنذ ان جرى هذا الاتصال ضاعت القضيّة من ايدي العرب وانتقلت المبادرة الى يد عدوهم .

ومع ذلك فقد تجدد القتال بعد الهدنة الاولى التي تخللتها حوادث غريبة منها : منع المناضلين الفلسطينيين من احتلال القدس بكاملها بعد ان وقع نصفها بأيديهم . ومن ذلك رفض القيادة العراقية مساندة الجيش المصري الذي كان يحارب اليهود في الجنوب . وكان البرلمان العراقي قد قرر الزحف من جهة رأس العين على اليهود لتخفيف الضغط اليهودي على الجيش المصري ، بزحف عراقي باتجاه تل ابيب . وكذلك قرر مجلس الوزارة التنفيذ ، واصدر رئيس الوزراء السيد مزاحم الباجه جي امره الى وزير الحربية باستئناف القتال . ولكن وزير الحربية ابى الامتثال لامره ، مما أدى الى استقالة الوزارة العراقية . وهو حادث فذ في تاريخ الوزارات في الدنيا كلها .

وحاصل القول ان اسباب هزيمة العرب في فلسطين كثيرة اهمها :

١ ـ الدسائس الاستعمارية وحرب الاعصاب التي شنت على الدول العربية للفت في عضدهـا واضعاف مقـاومتها والقبول بالنصائح التي تلقى اليها للرضاء بالامر الواقع .

٢ ـ عدم تأليف حكومة فلسطينية وجيش عربي فلسطيني فور انتهاء الانتداب تناط بها مسؤولية الدفاع عن فلسطين بالدرجة الاولى ، اذ ان الفلسطينيين هم اولى الناس بهذا الدفاع لمعرفتهم بمداخل بلادهم ومخارجها واقدرهم على الاستفادة من مجهودات الشعب وتحويلها للغايات الحربية .

٣ ـ فقدان التعاون بين بعض الدول العربية وبين بعضها الآخر تعاوناً تامًا ، سياسياً وعسكريا . ويتبع ذلك ارسال الدول العربية جيوشها الى فلسطين بينما هي مختلفة فيما بيها اختلافا شديداً .

٤ ـ تسليم القيادة العامة لشرق الاردن اي الى القائد البريطاني كلوب باشا ، مع العلم ان بريطانيا وراء الوطن القومي اليهودي تساعده وتفتح له الطريق .

٥ ـ قبول الهدنة الاولى ، مما اعطى اليهود الفرصة للاستعداد والتسلح ورفع الحصار عن مئة الف يهودي في القدس كادوا

يستسلمون او يموتون جوعا وعطشا .

٦ ـ النقص البادي في كل وسائل التعبئة وعدم الاستعداد للحرب في جميع البلاد العربية .

٧ ـ التخاذل وعدم التجانس الذي وقع ضمن الهيئة العربية العليا ، وهي اكبر هيئة فلسطينية معروفة[1] .

امثلة لبعض الحوادث المؤلمة التي وقعت اثناء حرب فلسطين :

١ ـ اشتد الضغط على اسرائيل حين استئناف القتال بعد الهدنة الاولى فقامت مظاهرات يهودية واضطرابات دامية في القدس وتل ابيب وحيفا تطالب الحكومة بعقد الصلح مع العرب ، فخطب في أثنائها رئيس وزارة اسرائيل بن غوريون خطابا تاريخيا . ومن جملة ما قاله للمتظاهرين : « ارجو منكم ان تصبروا بضعة ايام فقط وسترون ان جميع آلامكم ستنقلب بطريقة سحرية لمصالحكم ، انا اعلم اكثر منكم بهذا الامر ، ولكن لا يمكنني ان ابوح لكم بأسرار مهمة ، ان الذي ترونه هو غير الحقيقة ، ستتبدل مخاوفكم

(١) ان هذا السبب لم يؤد فقط الى عدم التعاون بين اعضاء الهيئة والرئيس بل الى المعاكسات التي اثرت ايضاً تأثيراً سيئا على الحوادث .

كلها بأقل من اسبوع وستعيننا في ذلك القوى التي تحرك العرب ، وتسيطر على حركاتهم » او بهذا المعنى .

٢ ــ نشرت مجلة آخر ساعة في عددها رقم ٨٤٠ الصادر بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٥٠ صحيفة ٦ ، تحت عنوان : « المرحومة فلسطين » ما يلي : « وفي العراق منع الجيش العراقي من التقدم خطوة واحدة واستدعي للعراق قائد القوات العراقية في قطاع جنين واحيل الى المعاش » والقصة هي ان اليهود كانوا بعد الهدنة الاولى في حالة اضطراب شديد كما ذكرنا . وتقدم ضابط يقود مفرزة عراقية مع ٧٠٠ مناضل فلسطيني من جنين نحو « العفولة » ، المستعمرة اليهودية المشهورة على طريق حيفا ــ جنين ، وتمكن من تشتيت الحاميات اليهودية في طريقه وافناء حامية العفولة . فما كان من يهودي حيفا الا ان قاموا بمظاهرات صاخبة طالبين الصلح مع العرب واجتمعوا باثنين من عرب حيفا الباقيين فيها وهما الحاج طاهر قرمان (شركة قرمان وديك وسلطي) ، وآخر اسمه شحادة شلح وزودوهما بكتاب للقائد العراقي طالبين منه الامان ، وان اليهود يريدون فقط ان يعيشوا باطمئنان وسلام مع العرب

ويدعونهم للدخول الى حيفا وعدم التعرض لهم بسوء . وقد وعد رئيس بلدية حيفا اليهودي واسمه شابوطاي ليفي الحاج طاهر قره مان ورفيقه شحاده شلح بسيارة عليها علم ابيض لأداء المهمة . وانتظر الرجلان عودة ليفي مساء ولكنه لم يحضر . وبعد يومين فهم ان ابن غوريون ـ رئيس الوزارة الاسرائيلية ـ حضر الى حيفا وطمن اليهود وقال لهم ان الاوامر صدرت من القيادة العراقية بسحب قواتها المتقدمة من العفولة واستدعاء الضابط العراقي وسوقه مخفوراً الى بغداد . وهكذا كان ، فان الضابط المذكور احيل الى المعاش . هذه هي القصة وقد رواها بعضهم بشكل آخر وفهم فيما بعد ان لجنة النواب العراقية التي سافرت الى فلسطين للتحقيق بأسباب الهزيمة تداخلت بالامر واعادت الضابط المذكور الى وظيفته .

٣ ـ وفي اثناء الهدنة الثانية سحبت الحكومة المصرية قسماً كبيراً من الجيش المعسكر في فلسطين بسبب تخوفها من الحالة الداخلية وخلو البلاد من القوة العسكرية . وبما انها حكومة اقلية فقد خشيت على وضعها من تحفز الوفد المصري والاخوان المسلمين .

وفي هذه الاثناء اوحت الحكومة البريطانية الى اسرائيل باغتنام فرصة ضعف الجبهة المصرية لخرق الهدنة واحتلال النقب . ولكن اسرائيل رفضت ، بحجة خوفها من انتقاض الجيش العراقي والاردني عليها من رأس العين باتجاه تل ابيب . ويقال ان الانكليز تعهدوا لليهود بألا يحركَ الجيشين العراقي والاردني ساكناً ، ثم اعطوا تعهد للسفير الاميركي في تل ابيب بذلك . فلما اطمأن اليهود على مؤخرتهم هاجموا المصريين برتلين آليين : رتل تقدم من بئر السبع وتوغل باتجاه العريش ، ورتل تقدم نحو الفلوجه ليلتقي مع الرتل الاول . واشتدت المعركة ، وارتد الجيش المصري من جهة العريش وصمد قائد الفلوجة مع المتطوعين الفلسطينيين فأوقف اليهود عن الزحف . وكانت الحالة على جانب عظيم من الخطورة . وناشدت مصر والدول العربية العراق والاردن بأن تقوم جيوشها بالهجوم على مؤخرة اليهود لتخفيف الضغط على القوات المصرية واحتلال تل ابيب . وصدرت الاوامر من رئيس الحكومة العراقية مزاحم الباجه جي للقائد العراقي بالزحف بعد اخذ قرار اجماعي بذلك من مجلس النواب والاعيان في بغداد .

ولكن تعطل هذا الامر بأمر معاكس من وزير الدفاع : مما ادى الى استقالة مزاحم من رئاسة الوزارة . وهكذا وقف الجيش العراقي والجيش الاردني على الحياد في هذه المعركة الفاصلة .

٤ ـ ومن الادلة على عدم انسجام السياسة العربية مع الحوادث في فلسطين ان حكومة النقراشي في مصر حلت في اثناءها جمعية الاخوان المسلمين ، تلك الجمعية المشهورة بفعاليتها ومواقفها الوطنية الجريئة . ولو تركت وحدها لاستطاعت ، بمؤازة المناضلين الفلسطينيين وبمساعدة الجيوش العربية فنيا بالطيران والمدفعية ، القضاء على الصهيونية في مدة وجيزة . ولكن القابضين على زمام الحكم في مصر آنذاك بدلا من ان يشجعوا هذه المنظمة اساءوا اليها وشتتوا افرادها واصدروا الاوامر العسكرية بحلها واعتقال رجالها ثم قتلوا رئيسها المرحوم الشيخ حسن البنا . وقد حصل حل جمعية اخوان المسلمين في الوقت الذي كانت فيه اسرائيل تساعد سرا وعلانية جمعية (الارغون) و (شتيرن) الارهابيتين وعصاباتها المشهورة التي تجرأت على قتل الكونت برنادوت .

نتائج احتلال اليهود لفلسطين

١ ــ ان اقامة دولة يهودية بين افريقية العربية وآسيا العربية كان بمثابة اسفين او وتد يشطر الجسم العربي جغرافيا الى شطرين لاموصلات برية بينهما ، ويؤخر التعاون بين ذينك الشطرين .

٢ ــ تشريد مليون لاجىء عربي فلسطيني في مختلف البلاد العربية وضياع ثروة عربية تقدر بألوف الملايين من الجنيهات بالاضافة الى الخسارة القومية التي لا تقدر بثمن .

٣ ــ اضطرار البلاد العربية لصرف جهودها للنواحي الدفاعية والعسكرية بينما هي احوج ما يكون لانفاق معظم تلك الجهود في سبيل رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بين سكانها .

العلاج الاكيد لامراضنا السياسية والاجتماعية

هذه هي الحال في البلاد العربية ازاء الصهيونية . غير اننا نرى بصيصا من النور اذ نثق بأن اليقظة آتية لا ريب فيها وان العرب يتعطشون للرد على التحدي الصهيوني . وقد كتب الكثيرون في اسباب ما نحن فيه من ضعف وما وصلنا اليه من

هزيمة فشخصوا المرض ووضعوا العلاج . ومع ذلك فمن الضرورة بمكان ان نستعرض الموقف علنا نجد طريقة لتوحيد اسباب العلة و ردها الى قاسم مشترك اعظم هو بمثابة علة العلل . ومتى تشخصت هذه العلة سهل ايجاد العلاج .

اعتقد ان علة العلل في كياننا هو عدم انسجامنا وتكيفنا مع الركب العالمي وعدم التكيف Manque d'adaptation وهذا ظاهر في كل شاردة وواردة في حياتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية . ولقد سبق وقلنا ان معضلة فلسطين هي معادلة بين كفتين : كفة الصهيونية وكفة الامة العربية وكذلك درسنا وضعية هاتين الكفتين ، وهنا يظهر الفرق العظيم والبون الشاسع بين سياسة الدولة الاسرائيلية ومناهجها واعمالها وبين سياسات الدول العربية وضعف مناهجها وعدم انسجامها .

في اسرائيل سياسة اقتصادية واجتماعية مبنية على أحدث الاسس في العالم ، شبيهة بالنظام الاقتصادي في انكلترا ، سياسة اشتراكية لرفع العامل والطبقات الفقيرة والتقريب بين الطبقات سياسة تكوين أمة حقيقة في اطار من الضمان الاجتماعي الذى يجد

فيه الفرد الطمأنينة على يومه وعلى غده ، مما يهون عليه كل تضحية في سبيل وطنه .

وفي البلاد العربية اقطاعية ورجعية وعدم تنسيق اقتصادي اجتماعي .وفي اسرائيل تقنين ونظام يفضل ضروريات المعيشة على الكماليات ، اما في البلاد العربية فتبذير لاحد له وانفاق ثروة الامة على الكماليات بلا رادع ولا وازع .

في اسرائيل تنظيم صناعي ممتاز ، هدفه تكوين اعظم صناعة عرفها تاريخ الشرق .واسرائيل تنتظر صلحا مع البلاد العربية لتغزوها اقتصاديا وماليا ثم تغرقها بمختلف السلع .وفي البلاد العربية لا نجد هذا الاهتمام بالصناعة وبالمشاريع الصناعية لا بتشجيعها عن طريق حمايتها التامة ومساعدتها ماليا وفنيا .

اما في السياسة فلا انسجام ايضا في سياسة الدول العربية ، لا في الداخل ولا في الخارج ، بل يمكن ان يقال بأن خفايا السياسة العربية هي غير ظاهرها وان بعضنا يضمر لبعضنا الآخر نيات غير التي نصرح عنها .

وبالاختصار فان هنالك انسجام في اهدافنا وفي الطرق

المؤدية الى هذه الاهداف ، ثم عدم انسجام سياستنا واحوالنا مع هذا العدو العالم القوي الغني الذي يتمتع بنفوذ عظيم لدى الدول الكبيرة .

لذلك نرى من الضروري ان نحدث تغييراً اساسياً في مجتمعنا وان نكيفه تكييفا تاما ليجانس ما عليه من حولنا من الامم القوية ، وخصوصا عدونا الجاثم على حدودنا . وبهذه الوسيلة وحدها يمكننا ان نغير هذا الوضع الشاذ الذي نحن فيه وان نسترد الوطن المغصوب و احترام الامم ، وان نسترد كرامتنا وعزتنا الوطنية .

وللوصول لهذا الهدف يجب ان نحدث تغييراً اساسياً في عقليتنا وذهنيتنا ، فان العقلية البالية هي سبب تباطئنا وعدم تكيفنا وانسجامنا مع الركب العالمي المتقدم في العلم والحضارة والقوة والاخلاق .

لقد كشفت هزيمة العرب في فلسطين عن حقيقة هذه الامة وان هناك تفسخا في جميع الميادين واخصها الميدان الاخلاقي اي في الجبهة الخلفية للجيوش والمعارك . اننا لم نحشد جميع القوى الحربية والمدنية في سبيل الانتصار على العدو ، بل بقينا نلهو ونتمتع في

طعامنا ولباسنا وطراز معيشتنا وكأننا لسنا في حرب مع عدو يريد ان ينتزع منا اعز قطر لدينا . ولقد كانت الحكومات ايضا تعمل عمل الفرد، فلا اتحاد بينها ولا تعاون على درء الخطر بل اصرار على التفرقة والانانية واللامبالاة . اننا لم نغلب من قلة ولكن من ضعف في الوعي الوطني والمفهوم القومي .

ومما يجب لفت الانظار اليه ان سياسة الدول العربية أخفقت حتى الان لسببين :

١ ــ السبب الاول هو ان الحكومات العربية سارت في سياستها على طريقة محاباة « الشارع » ، فعوضا عن ان يقود الزعماء السياسيون الجماهير نحو مصلحة البلاد الاساسية ، نراهم يتمشون حسب اهواء هذه الجماهير لاكتساب الشهرة ولمنافسة غيرهم في سبيل نيل هذه الشهرة ولو على حساب مصلحة الامة .

٢ ــ اما السبب الثاني فهو ان العرب يريدون انهاء مشاكلهم كلها دفعة واحدة ، فهم يريدون الانتصار على فرنسة في مراكش وتونس والجزائر ، وعلى بريطانيا في الكويت والبحرين وقطر وعمان وعدن ولحج والمحميات التسع وقنال السويس والسودان ،

وعلى اسرائيل ايضا في وقت واحد. ان المنطق والعقل يقضيان تقديم الاهم على المهم وعدم اغضاب العالم كله مرة واحدة.

وفي الختام يجب ان اكرر ما قلته آنفا وهو لزوم تغيير ذهنيتنا وعقليتنا قبل كل شيء لتتحسن احوالنا ولنتمكن من تكوين دول حقيقية وشعوب راقية لها وزنها في العالم. ان ايجاد هذه الذهنية يقتضي اصلاحا اجتماعيا سياسيا.

الرد على التحدي الصهيوني

كلما تعمقنا في درس القضية الفلسطينية دهشنا من عدم الانسجام في سياسة الدول العربية بسبب الكابوس الاجنبي المسيطر فعلا على بعضها. ولكن مما يزيد في دهشتنا هذه ضعف الوعي القومي في هذه الدول نفسها.

ومن المعلوم ان الكارثة لم توقظ ضمير الامة ايقاظا تاما يدفعها الى العمل فان على هذه الامة ان تنتظر كوارث اشد الى ان يخرج هذا الوعي من كوامن نفسها وباطن عقلها وحينئذ تعمل للرد على التحدي وتثور على الطرق التي استعملت في معالجة قضاياها الرئيسية والتي احدثت الفشل الذريع والنكبة الكبرى.

فهل هناك دلائل قاطعة على ان الوعي القومي اخذ يظهر من مخبأه ، وان علائم الحساسية قد دبت فينا ، وان ساعة اليقظة الحقيقية قد دنت ان شاء الله ؟ .

يقول الدكتور زريق في كتابه ـ معنى النكبة ـ على الصفحة الخامسة عشرة : « ولا جدال في ان هذه البلية ليست شراً كلها فان فيها من التساؤل والمحاسبة والتألم النفسي ما قد يشق طريقا جديداً للمستقبل . ذلك ان التساؤل هو الخطوة الاولى للتقدم الفكري ، كما ان الالم قد يبعث قوى النفس ويحفزها لبذل اوفر وجهد اشد » . ثم يقول في الصحيفة الخامسة والعشرين : « بلزوم التعبئة السياسية لتوحيد اغراض الدول العربية وسياستها وتقوية الرأي العام الى الحد الذي يضغط به على ارباب الاطماع والمصالح الضغط الكافي ليتجردوا منها قبل ان تدك ارائكهم ويذهبوا هم واطماعهم هباء منثورا » .

والذي يعجل في يقظة الامة العربية هو تحقق الاهداف القوية في نفوس الزعامة او النخبة الموجهة في الامة لذلك يجب علينا درس الوضع الحاضر لمعرفة ما اذا كان هناك دلائل تدل على

بزوغ شمس الامل في تحرك الامة العربية نحو اهدافها السامية لتستجيب الى دواعي الاستفزاز وترد على التحدي الصهيوني رداً قويا يرجع الامور الى نصابها الاول فترد على الامة العربية كرامتها والثقة بنفسها .

مما لا شك فيه ان هناك شعوراً عاماً يدفع جميع الدول العربية نحو التسلح ورصد القسم الاكبر من ميزانيتها للدفاع الوطني . والأهم من ذلك هو ما نراه من الاهتمام في كشف النقاب عن مهازل مشتراة الاسلحة الفاسدة في مصر ابان حرب فلسطين ، ثم ما نراة من توثيق اواصر الاخوة بين البلدان العربية ووقوفها جميعا موقفا واحداً في الاندية الدولية ، وخاصة في جلسات الامم المتحدة .

ولقد تحدت كارثة فلسطين الامة العربية في سورية ومصر ، فحصلت تلك الانقلابات الاساسية التي احاطت بنظام الحكم وبالحاكمين معا ، حتى استقرت الامور على اساس جديد من الثورة على العهود الماضية والسير على مناهج جديدة تقدمية سريعة في الميدان العسكري والاقتصادي والاجتماعي . وقد انتعش الرأي العام العربي بعد هذه الانقلابات وازدادت الثقة في حيوية الامة

العربية وعظم الامل بنهوضها من كبوتها . ثم اتحدت الاهداف وارتفعت اسهم العرب في الميزان الدولي . فاذا اضفنا الى ذلك جميع الحوادث المهمة التي وقعت في الاردن وفي العراق وجدنا ان الرد على التحدي الصهيوني شمل جميع البلاد العربية المجاورة لفلسطين .

اما في المملكة العربية السعودية فقد ظهرت حركة نشاط في ظل العاهل العظيم تجلت في انشاء جيش نظامي حائز لجميع المؤهلات الحديثة وفي مشاريع عمرانية و اقتصادية على جانب عظيم من الاهمية؛ منها انشاء السكك الحديدية ، وبناء المرافيء الكبيرة ، وتعبيد الطرق ، وتقوية القوات الجوية العسكرية ، والمدنية ، وارسال البعثات العلمية الى الخارج وانشاء السدود وتأمين ماء الشرب للسكان ، والعناية بالزراعة والصناعة الى غير ذلك من الامور التي تبشر بنهضة عظيمة في الجزيرة العربية .

لقد كان العرب في حرب فلسطين يحاربون على جبهتين : جبهة فلسطين وجبهة الاستعمار داخل بلادهم . اما اليوم فان النهضة متجهة لتصفية جبهة الاستعمار بمصر وسوريا والعراق

والاردن ولبنان حتى اذا انتهت الدول العربية من هذه الجبهة سهل عليها منازلة الصهيونية وجها لوجه ومقارعتها من غير ان يكون هنالك ما يشغلها في داخليتها من جراثيم الاستعمار واذنابه.

وبالاختصار فان علائم التألم ظاهرة في كل بلد عربي رغم ما يقوم به المستعمرون من الدعايات الباطلة في تخديره. والالم من اعظم بواعث اليقظة، ولا بد ان يستفز النفوس فيرد على تحدي الصهيونية بالرد الكافي بأذن الله.

فهرست الكتاب

صفحة	الموضوع
٥	الاهداء
٧	استهلال
١٠	مقدمة الكتاب
١٢	لمحة عامة
١٢	الثورة الصناعية
١٥	كيفية استنباط السنن من التاريخ
٢٠	نشوء الدول الكبرى
٢٣	نظرة عامة في العوامل المؤثرة في تكوين الحضارة
٢٦	العوامل التي تتحدى الانسان وتستفزه
	العامل الاول: فقر البلاد الطبيعي
٣٧	العامل الثاني: الهجرة
٤٤	العامل الثالث: النكبات والكوارث
٤٩	العامل الرابع: الضغط
٥٢	العامل الخامس: التعويض والتوازن
٥٧	العامل السادس: الاستعمار والرجعية
٦٠	نظرة عامة في مجمل العوامل
٦٣	البداوة
٦٧	توازن القوى

صفحة	الموضوع
٧٠	الصهيونية وتحديها للامة العربية
٨٤	استعداد اليهود للمستقبل
٨٦	استعداد اليهود الصناعي
٨٧	اليهود في البلاد العربية
٨٩	سياسة اليهود الاقتصادية
٩١	العرب
٩٢	اسباب هزيمة العرب
١٠٠	امثلة لبعض الحوادث المؤلمة اثناء حرب فلسطين
١٠٥	نتائج احتلال اليهود لفلسطين
١٠٥	العلاج الاكيد لامراضنا السياسية والاجتماعية
١١٠	الرد على التحدي الصهيوني

المؤلف

١ - الانظمة الجركية

٢ - حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00342933